أيديولوجيا السمع والطاعة بين شيخ الطريقة وأمير الجماعة

إعداد

د. مصطفى محمد مصطفى شاهين
المدرس بقسم الفلسفة
كلية الآداب – جامعة المنوفية

دورية الانسانيات. كلية الآداب. جامعة دمنهور
العدد الستون - الجزء الثالث – يناير - لسنة 2023

أيديولوجيا السمع والطاعة بين شيخ الطريقة وأمير الجماعة

د. مصطفى محمد مصطفى شاهين

ملخص البحث

يتناول هذا البحث مفهوما مهما ضمن فعالية التدين التي يمارسها المسلم من حيث أنه يسمع ويطيع أوامر الله رسوله في كل عصر، وفي عصرنا الحاضر. حيث يوضح البحث كيف تحول مبدأ السمع والطاعة إلى أيديولوجيا، على يد شيخ الطريقة وأمير الجماعة، من كونه سمعا وطاعة لله ورسوله إلى أن صار سمعا وطاعة لأوامر الشيخ وطلبات الأمير. وكيف يتحكم شيخ الطريقة وأمير الجماعة في مريديهم وتابعيهم.

وقد دفعني لإنجاز هذا البحث أسباب عديدة منها : 1- توضيح كيف حض الدين على السمع الطاعة 2- نقد زعم شيوخ الطرق وأمراء الجماعات أن طاعتهم دين 3- بيان أيديولوجيا الشيوخ والأمراء في إطلاق طاعة أتباعهم. 4- التفرقة بين الطاعة التي يدعو إليها الإسلام والطاعة التي يريدها شيوخ الطرق الصوفية وأمراء الجماعات الإسلامية.

ويتناول هذا البحث المباحث الآتية: المبحث الأول: مفهوم الأيديولوجيا عامة والأيديولوجيا الدينية خاصة. المبحث الثاني: تأصيل مبدأ السمع والطاعة في القرآن والسنة. المبحث الثالث: مفهوم التماهي العقدي وتبعية السمع والطاعة. المبحث الرابع: أيديولوجيا السمع والطاعة عند شيخ الطريقة. المبحث الخامس: أيديولوجيا السمع والطاعة عند أمير الجماعة.

الكلمات الافتتاحية: أيديولوجيا ، السمع ، الطاعة ، الشيخ ، الأمير

The Ideology of Listening and Obedience Between the Sheikh of Method and the Prince of Community

This research deals with an important concept within the effectiveness of religiosity practiced by the Muslim in that he hears and obeys the commands of God and His Messenger in every age, and in our present age. Where the research shows how the principle of hearing and obedience was transformed into an ideology, at the hands of the Sheikh of the Order and the Emir of the group, from being hearing and obedience to God and His Messenger until it became hearing and obedience to the orders of the Sheikh and the requests of the Emir. And how the Sheikh of the way and the Emir of the group control their followers and followers.

Many reasons motivated me to complete this research, including:

1- Clarifying how religion encouraged obedience to be heard 2- Criticizing the claim of religious sheikhs and leaders of groups that their obedience is part of religion 3- Explanation of the ideology of Sheikhs and princes in obeying their followers. 4- Differentiating between the obedience that Islam calls for and the obedience that is desired by the sheikhs of the Sufi orders and the leaders of Islamic groups.

This research deals with the following topics: The first topic: the concept of ideology in general and religious ideology in particular. The second topic: Rooting the principle of hearing and obedience in the Qur'an and Sunnah. The third topic: the concept of nodal identification and the subordination of hearing and obedience. The fourth topic: The ideology of listening and obedience according to the Sheikh of the Order. The fifth topic: the ideology of hearing and obedience according to the leader of the group.

أولا : أهمية البحث :

يعالج هذا البحث قضية خطيرة في واقع المسلمين المعاصرين، بل في كل عصر، حيث يتناول جانبا أساسيا في الدين ينبني عليه تدين المسلم، وهو إنسانية مبدأ السمع والطاعة. إنه إذا كان الواجب على المتدين بحق أن يسمع أوامر الله ورسوله ويطيعها باعتبارها صدورها الإلهي والنبوي، فإنه من الخطورة بمكان أن يتحول السمع والطاعة لدى المتدين إلى طاعة شيخ الطريقة في التصوف أو أمير الجماعة في التوجه والفرقي الجماعاتي وبخاصة في الجانب السياسي.

إن هذا التحول لمبدأ السمع والطاعة لله ورسوله إلى السمع والطاعة للشيخ والأمير قد تم بحرفية أيديولوجية تدينية، مارسها شيخ الطريقة وأمير الجماعة بوعي متعمد على المريدين والأتباع، وقد صارت تستبيح لنفسها إصدار الأوامر بكل ما هو مشروع وأحيانا غير مشروع، في سبيل إثبات أحقية كل منهما بتمثيل الإسلام بفهمه الحقيقي له، وكأن كل منهما يرى أن الإسلام لا يتحقق إلا بطاعته، وكأنه صار هو التدين بل الدين.

والعجيب أن هذه الأيديولوجية التحكمية في السمع والطاعة من شيخ الطريقة وأمير الجماعة على مريديهما وأتباعهما، تزعم لنفسها نوعا من القداسة والعصمة رسختها في نفوس المريدين والأتباع، بأن طاعتهما من طاعة الله ورسوله، بل أهم من طاعة الله ورسوله؛ من حيث أن الشيخ والأمير هم اللذان يفهّمان المريدين والأتباع الدين الصحيح بفهمهم الصحيح، وأن المريدين والأتباع قاصرون بفهمهم المستقل عن إدراك حقيقة الدين.

والعجيب أيضا أن كلا من شيخ الطريقة وأمير الجماعة يزرع في نفوس أتباعه كرها تدينيا مضادا للآخر، فيقنعه بتهافت مسلكه وخطأ طريقته وضياع ثواب تدينه إن هو ترك طريقه الذي هو عليه وانضم للطريق الآخر، فيصير خارجا عن الدين بدعوى تركه للجماعة وخلعه اليد من السمع والطاعة.

ولكي يضمن شيخ الطريقة وأمير الجماعة السمع والطاعة التامة من المريد والتابع، فإنه يأخذ عليه ما يسمى بالبيعة وعهد الطريق، وهو عهد أساسه السمع والطاعة للشيخ والأمير. وقد يتم ذلك من المريد والتابع دون أن يدرك عواقب هذا الأمر في حقيقته، وما يترتب عليه إن هو ترك هذا الأمر ولم يعد يسمع ويطيع أوامر شيخ الطريقة وأمير الجماعة واعتزلهما تماما. والخطورة فيما قد يترتب على ترك الطريق والجماعة.

ويمكن القول إن أيديولوجيا السمع والطاعة قد تمثل أحيانا عبئا على المتدين القائم والمستمر في الطريقة والجماعة، من حيث يشعر أحيانا ببعض التناقض والتضاد بين

أوامر الله ورسوله، وبين أوامر الشيخ والأمير التي يكون فيها نوع من العبء التديني أو التكليفي الشديد على التابع والمريد، حتى إذا حاول أن يصير (متدينا مستقلا)، وقع في صدمة شديدة أو تناقض حاد أو تفريط وإفراط. وبعضهم إذا استقل فعلا، قد لا يستطيع التخلص تماما من سيطرة أيديولوجية الشيخ والأمير في تبرير السمع والطاعة.

ويمكن القول أيضا إن أيديولوجية السمع والطاعة عند شيخ الطريقة وأمير الجماعة ليست فقط في تنفيذ الأوامر والنواهي العملية وفق مطلوب الشيخ والأمير وهواه أحيانا فحسب، بل أوجدت أيضا نوعا من التوحد أو التماهي الإيماني بين المريد والتابع وبين شيخ الطريقة وأمير الجماعة، وكأن إيمان التابع والمريد صار هو إيمان الشيخ والأمير، أو توحد الإيمانان مع بعضهما. والحقيقة أن إيمان المريد والتابع، ليس هو إيمان الشيخ والأمير. وإنما كل منهما مستقل عن الآخر، ومحاسب عليه وحده في الآخرة.

وكم من مصائب وكوارث أوجدها تطبيق أيديولوجيا السمع والطاعة لدى شيخ الطريقة وأمير الجماعة على المريدين والأتباع. فكم من أمر صدر من شيخ أو أمير وفي هو الحقيقة وجداني محض، لا صلة له بأمر الله ورسوله. وكم من أمر صدر من شيخ أو أمير وقد ترتب على تنفيذه كوارث وخراب وقتل وتدمير. وكم من أمر صدر من شيخ أو أمير وهو صريح في التكفير للآخر، بل وتكفير الموافق إن هو فهم وفكر بغير ما يفهم الشيخ والأمير ويفكر. وكم من أمر صدر بقتل من استقل واعتزل.

وفي رأينا أن هذه قضية مهمة وخطيرة تثبت أن مريدي الشيوخ وأتباع الأمراء لم يتركوا تدينهم فحسب رهن أيديولوجيا شيوخهم وأمرائهم، بل تركوا أنفسهم وأرواحهم رهن هذه الأيديولوجيا التي اخترعها الشيوخ والأمراء للسيطرة على أتباعهم وجعلهم رهن إشارة أوامرهم ورغباتهم وتحكماتهم في التدين وفي حياة الإنسان. وإن اللوم كل اللوم إنما يقع على أولئك الأتباع والمريدين الذين يسلمون تدينهم وعقولهم ونفوسهم لغيرهم ممن يدّعون مشيخة وإمارة وكأنها الدين نفسه. وهي ليست تكون من الدين أصلا.

وإن التأصيل الصحيح لهذه القضية الخطيرة يلزمنا بالنظر الدقيق في آيات القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية، فما نجده فيهما عنها، يجب علينا أن نؤمن به وندافع عنه عقليا، بالاعتبار الإيماني العقائدي، بأن نوضحه بلغتنا العصرية وفكرنا المعاصر، عن طريق آليات العصر ووسائله غير النمطية، وذلك من أجل إقناع الآخر، دون تطرف تنظيري أو إرهاب مادي أو عداء تديني، أو افتراء تنظيري على شيخ طريقة صوفية أو أمير جماعة إسلامية.

وقد يتضمن الحل الإسلامي (افعل ولا تفعل) لمشكلة ما، الأمر الصريح (اسمع وأطع). وهنا يكون السمع والطاعة ضروريا، بل حاسما في هذه المشكلة. والمشكلة التي نحن بصددها في هذا البحث هي كيفية التصرف حيال أيديولوجيا الشيخ والأمير في أوامرهم لمريديهم وأتباعهم؟ هل نكتفي بنقدها فقط أم يجب تحذير هؤلاء المريدين والأتباع منها؟ وهل إذا تم التحذير سيستجيبون لذلك؟

وعندما يأتي الأمر الإلهي والنبوي لحل مشكلة ما، فلا شك في أنه يكون العلاج الكافي والدواء الشافي. ولا بد للمسلم والمؤمن الحقيقي أن يسارع في الأخذ به وتطبيقه. وقد أمر الله ورسوله المسلم أن لا يطيع في إلا في صواب، ولا يطيع في معصية. ولا تكون طاعته إلا لله ورسوله.

ثانيا : أسباب اختيار البحث :

لقد دفعني لاختيار هذا البحث عدة أسباب منها :

1- بيان ما يحض عليه الدين من خلال القرآن والسنة في شأن مبدأ السمع والطاعة الذي يقوم عليه جوهر التدين عند الطرق الصوفية والجماعات الإسلامية

2- توضيح معنى الأيديولوجيا بصفة عامة والأيديولوجيا الدينية بصفة خاصة، وكيف يمكن أن يصير أمرا في الدين أيديولوجيا بفكر مفكر.

3- نقد ما أشاعه شيوخ الطرق الصوفية وأمراء الجماعات الإسلامية من أن طاعتهم من طاعة الله ورسوله أو هي طاعة لله ورسولة .

4- توضيح وبيان الفرق بين (طاعة الإسلام) التي يدعو الإسلام المسلمين إليها باعتبار التدين، حين أداء الفروض والواجبات الدينية، سواء في الصلاة أو الصوم أو الحج، وبين (طاعة شيوخ الطرق وأمراء الجماعات) التي يدعون مريديهم وأتباعهم إليها من يخدعونهم بأيديولوجياتهم الفكرية المبتدعة.

5- كشف وفضح أيديولوجيا شيخ الطريقة وأمير الجماعة في إذكاء نار التعصب للذات القيادية واعتبارها جزء من الدين، ونقد التعصب المتبادل الذي يوجده الشيخ والأمير في نفوس أتباعه تجاه الآخرين المخالفين.

6- محاولة إيجاد نوع ما من (الوعي التديني العقدي الاستقلالي) لدى أتباع الطرق الصوفية والجماعات الإسلامية، بحيث يؤدي بهم إلى الفهم الصحيح لمبدأ السمع

والطاعة كما أمر به الله في قرآنه، وأقره رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في أقواله وأفعاله.

ثالثا : منهج البحث :

أما عن المنهج الذي اتبعته في معالجة هذا البحث، فإنه يتمثل في منهج أساسي، يساعده منهجان آخران ضروريان أيضا، لتوضيح ما يخص عرض عناصر البحث ونتائجه. أما المنهج الأساسي فهو المنهج التحليلي الذي اقتضى مني العكوف بالتحليل الدقيق لأهم الطرق الصوفية ومصادر الفرق والجماعات الإسلامية لاستخراج عناصر هذه القضية عندهم، ومن قبل توضيحها في رأي الدين، وفي وجهة نظر شيخ الطريقة وأمير الجماعة.

وأما المنهجان الآخران الضروريان، فأولهما : المنهج التاريخي الذي اقتضي مني التأصيل التاريخي لهذه القضية، ورد كل جزئية فيها إلى مصادرها الأصلية التي نشأت فيها سواء على مستوى الواقع أو على مستوى التنظير. وثانيهما : المنهج النقدي ، وذلك لتوجيه الانتقادات اللازمة من جهة أدلة العقل والرد بالنقل أيضا على هذه الأيديولوجيا . وقد يكون هذا المنهج النقدي هو المنهج الأهم والأخطر من وجهة نظرنا؛ لمناسبته بالأساس لهذه القضية التي تقتضي النقد الشديد بل النقض والرفض أيضا لهذه القضية الخطيرة عند الطرق الصوفية والجماعات الإسلامية.

وأما عن خطواتي العملية في تطبيق هذا المنهج فإنها تتمثل أساسا في مراعاة أطراف النسبة في العنوان ومصطلحاته المحددة لإطاره البحثي، ومن ثم جاء تناولها في البحث على النحو التالي :

1– قمت بتقسيم القضية الأساسية المراد بحثها إلى جزئياتها الأصلية ، ثم تناولت بالدراسة والتحليل والنقد كل جزئية على حده ، حتى تستوفي المنهج التحليلي وفق ما يقتضيه البحث.

2– وضعت المصدرية النقلية والأمانة العلمية نصب عيني ، فلم أذكر نصا شرعيا دينيا، أو قولا لأحد المفكرين، إلا ونسبته لمصدره الحقيقي . وتحريت الدقة في نسبة كل رأي لشيخ طريقة أو أمير جماعة إلى مصدر كلامه من كتبه، فإن لم يوجد، فمن مصادر أحد تلاميذه، بشرط ألا يخالفه في المذهب.

3– استخدمت أسلوب المقارنة الخارجية بين طريقة أو جماعة ما وغيرها من الطرق والجماعات الأخرى، والمقارنة الداخلية بين أتباع كل طريقة وجماعة وبين بعضهم

البعض، وبخاصة عندما يكون لأتباعها آراء مختلفة في هذا الصدد، أو يكون لأحدهم رأيان أو أكثر في المسألة. وعمدت إلى الترجيح لما أراه متوافقا مع الأدلة الإقناعية أو الاقتناعية التي تلزم لتوضيح الفكرة حتى وصلت إلى شكلها الحالي في هذا البحث.

4- التزمت الحيدة والموضوعية قدر استطاعتي، سواء في مجرد عرض الآراء ومناقشتها، أو في توجيه الانتقادات بقدر ما يتطلبه البحث في ضرورة النقد الموضوعي، وليس لمجرد النقد في حد ذاته . وابتعدت تماما عن التعصب لفكر جماعة أو طريقة، طبقا لما يتطلبه المنهج العلمي في البحث المستقل.

وهذا يتفق مع طبيعتي الشخصية وميولي الكلامية البحثية، فأنا أعتقد أن الفكرة الأسلم في البحث التنظيري، والأليق بالتطبيق في الحياة، إنما يجب أن تكون تحت عنوان (الاستقلال الفكري) في التنظير والفعلي في الحياة . وذلك يتفق مع دعائي الذي أكرره دائما (اللهم أحيني مفكرا مستقلا بحق في فهم الدين، وأمتني مؤمنا مستقلا عندما يأتيني اليقين، واحشرني فائزا في زمرة المستقلين الفائزين يوم الدين). والحمد لله أولا وآخرا

رابعا : شرح وتحليل عناصر خطة البحث

المبحث الأول: مفهوم الأيديولوجيا عامة والإيديولوجيا الدينية خاصة

أولا : مفهوم الأيديولوجيا عند الغربيين والعرب

(أ) مفهوم الأيديولوجيا عند الغربيين:

يرى الباحث السياسيّ البريطانيّ ديفيد ماكليلان أنّ (الأيديولوجيا هي أكثر المفاهيم مراوغة في العلوم الإنسانية بأكملها). [1] ولكن من المتفق عليه بين الباحثين أن أول من عرّف الأيديولوجيا وتعرض لمفهومها بالتوضيح هو العالم الفرنسيّ أنطوان لويس كلود ديستوت دوتراسي حيث ورد في كتابه الذي يحمل عنوان (ملكة التفكير): ويتكون هذا المفهوم أساسًا من مقطعين «idea» وتعني فكرة، و«logos» وتعني علم. ودمج اللفظتين أنتج معنىً جديدًا للمصطلح هو «علم الأفكار» الذي يُعرّفه دو تراسي على أنّه (العلم الذي يدرس الأفكار، بالمعنى الواسع لكلمة أفكار، أي مجمل وقائع الوعي، من حيث صفاتها وقوانينها وعلاقتها بالأحداث التي تمثلها). [2].

وقد ورد في قاموس كامبردج تعريف الأيديولوجيا بأنّها: نظريّة أو مجموعة من المعتقدات، تكون خاصة بفئة معينة من النّاس، أو ربما بشعوب بكاملها أحيانًا، وربما يقوم عليها نظام سياسي معين أو حزب أو منظمة. [3]

وقد انتهى (مارتن سيلجر) إلى تعريف الأيديولوجيا: بوصفها "مجموعة من الأفكار، يضع من خلالها الناس ويفسرون ويبررون غايات ووسائل النشاط الاجتماعي المنظم، بغض النظر عما إذا كان ذلك النشاط يهدف إلى الحفاظ على نظام اجتماعي بعينه أو تعديله أو اقتلاعه أو إعادة بنائه. وبهذا التّعريف، لم تعد الأيديولوجيات لا جيدة ولا سيئة، لا صادقة ولا كاذبة، لا منفتحة ولا مغلقة، لا محررة ولا إكراهية، وإنما تستطيع أن تكون كل تلك الأشياء جميعا. (4)

(ب) مفهوم الأيديولوجيا عند العرب:

يظهر أن المفكرين العرب الذين اهتموا ببيان وتوضيح مفهوم الأيديولوجيا قد تأثروا بتصورات استعمال الغربيين لها، فنسجوا على منوالهم، وإن كان بعضهم قد حاول الخروج من الأسر الغربي لمفهوم الأيديولوجيا الغربي، لكن تصوراتهم قد تأثرت إما بهيجل أو ماركس أو مانهايم. وسنعرض فيما يلي بعض نماذج للمفكرين العرب في تصورهم للأيديولوجيا

أول ما يقابلنا ولعله الأهم في محاولة العرب توضيح مصطلح ومفهوم الأيديولوجيا هو قول د. عبد الله العروي: إن كلمة أيديولوجيا دخيلة على جميع اللغات الحية. فهي تعني لغويا في أصلها الفرنسي (علم الأفكار)، إن العبارات التي تقابلها – منظومة فكرية، عقيدة، ذهنية ، إلخ – تشير فقط إلى معنى واحد من بين معانيها. إننا نجد في العلوم الإسلامية لفظة لعبت دورا محوريا كالدور الذي تلعبه اليوم كلمة أيديولوجيا، وهي لفظة الدعوة في الاستعمال الباطني، غير أنه من المستحيل إحياؤها والاستعاضة بها عن كلمة أيديولوجيا التي انتشرت رغم عدم مطابقتها لأي وزن عربي. لذا أقترح أن نعرّبها تماما، وندخلها في قالب من قوالب الصرف العربي. وسأعطي المثل فأستعمل كلمة أدلوجة على وزن أفعولة وأصرفها حسب قواعد العربية. (5)

ويمضي د. العروي في هذا الاتجاه اللغوي فيذهب إلى أننا : نقول إن الحزب الفلاني يحمل أدلوجة، ونعني بها مجموع القيم والأخلاق والأهداف التي ينوي تحقيقها على المدى القريب والبعيد. ويكتسي هذا الحكم في استعمالنا الحالي صيغة إيجابية؛ لأن الحزب الذي لا يملك أدلوجة هو في نظرنا حزب انتهازي، ظرفي، لا يمهه سوى استغلال النفوذ والسلطة. (6)

ونقول أيضا إن فلانا ينظر إلى الأشياء نظرة أدلوجية، نعني أنه يتخير الأشياء ويؤول الوقائع بكيفية تظهرها دائما مطابقة لما يعتقد أنه الحق. ويتعارض الفكر الأدلوجي

مع الفكر الموضوعي الذي يخضع للمحيط الخارجي فيتشبع بقوانينه. إن عصرنا الذي يعبد العلوم الطبيعية يرى الفكر الأدلوجي بامتعاض كبير، إذ يعتقد أن الارتباط بمعتقدات مسبقة غير مبنية على تجربة شخصية، علامة من علامات المراهقة الفكرية. (7)

ثم ينتهي د. العروي إلى أننا نستطيع أن نستنتج أن مفهوم الأدلوجة دائما مزدوج: فهو في نفس الوقت وصفي ونقدي. يستلزم دائما مستويين : المستوى الأول: الذي تقف عنده الأدلوجة، حيث تظن أنها حقيقة مطابقة للواقع، وهو المستوى الذي يقف عنده الباحث لوصف تلك الأدلوجة بوفاء وأمانة. والمستوى الثاني: هو الذي يقف عنده الباحث عندما يحكم على الأدلوجة أنها أدلوجة لا تعكس الواقع على وجهه الصحيح. (8)

ويعرف الدكتور نديم البيطار الأيديولوجيا بأنها: (أية فلسفة حياة تفسر علاقة الإنسان بالمجتمع والتاريخ، تفسيرًا عاماً وشاملا يكشف عن منطق التاريخ وحركته). (9)

أما الدكتور ناصيف نصار فالأيديولوجيا عنده تعني : (نظام من أفكار اجتماعية، يرتبط بمصلحة جماعة معينة، ويشكل أساسًا لتحديد أو تبرير فاعليتها الاجتماعية في مرحلة تاريخية معينة. وما الأيديولوجيا سوى شكل من أشكال تعبير الجماعة عن فاعليتها التاريخيّة). (10)

ويفرّق د. أحمد محمود صبحي بين الأيديولوجي والفيلسوف، بأن الفيلسوف يتجاوز الإنسان إلى الكون، بينما يظل الأيديولوجي حبيسا لمشكلات الإنسانية. وفي الوقت الذي لا يسعى الفيلسوف إلى نشر مذهبه بين الجماهير ويقصره على صفوة المثقفين، فإن الأيديولوجي يسعى إلى انتشار آرائه ومثاليته بين قطاعات المجتمع، محاولا في ذلك أن ينقل ما يراه من فكر إلى عالم التطبيق الواقعي، ومن ثم يكون حسبما يعتقد قد نجح في مهمته الأيديولوجية. (11)

ويمكننا أن نعرف الأيديولوجيا بأنها : العلم بفكرة عقلية أو عقيدة تدينية أو توجه إبداعي، أو بمنظومة لكل منها، والقدرة الماهرة على تبريرها وتسويقها، لأكبر عدد من الناس، بالأصالة في إطار العلم والتخصص، وبالانتشار في إطار العوام، بمحاولة اعتماد مبدأ الإقناع العقلي؛ لأجل تحقيق أكبر نفع منها، وتغيير بها، واستمرار لها، سواء في مجال السياسة أو الاقتصاد أو العلم أو الدين. والأيديولوجي في حقيقة عمله وحياته، صنايعي أفكار، ينحت الفكرة، ويسوّغها ويبررها ويسوّقها؛ ليقنع بها غيره. ولا يصلح الأيديولوجي أن يعيش تابعا أبدا، بل لا بد له أن يكون متبوعا بأكبر قدر من الناس، بحيث يحققون فكرته في أنفسهم، ويعيشون بها في مختلف جوانب حياتهم.

ثانيا : مفهوم الأيديولوجيا الدينية

إذا نظرنا إلى الدين، أي دين، من زاوية إنسانية وبعيون بشرية غير تعصبية فإننا سنحرر الدين من كل مظهر تعصبي خلعه بعض السياسيين عليه، ومن أية وظيفة عنيفة، ومن أي استغلال له في خدمة مصالح ليست هي من صلبه. إذا عرفنا الدين من منظور فلسفي بوصفه جملة من الأفكار الإنسانية التي أخذت طابع المعتقد عبر الإيمان والتصديق حول قضايا الخير والشر والخلق والبداية والنهاية والعقاب والثواب وجملة طقوس يقوم بها المؤمن للتقرب من الإله، فإن الدين هو جزء لا يتجزأ من الهويات الروحية للناس، تستوي في ذلك جميع الأديان دون استثناء، السماوية منها والأرضية، وكل ما تفرع عنها من مذاهب وطرق.

لكن الدين شيء والأيديولوجيا السياسية المستندة إلى الدين شيء آخر، فما من دين إلا وقد نشأت في قلبه جماعة تستغله سياسياً، بل ونتيجة لعدد من التحولات التاريخية سنجد أنه ما من دين إلا ونشأت من ثناياه أيديولوجيا ما. فالصهيونية هي أيديولوجيا تتكئ على الترسيمات اليهودية، ولكنها ليست اليهودية، والحق الإلهي للملوك في أوروبا وسلطة الكنيسة واضطهادها للعلماء أيديولوجية استندت إلى المسيحية. وفكرة الحاكمية وما تفرع عنها من أحزاب وحركات سياسية استندت إلى تأويل للإسلام وليست هي الإسلام. وهذا يعني أنه ما من دين قد نجا من استغلال أيديولوجي. ولا ننسى أن هناك حروباً كثيرة في كل أنحاء العالم، قديماً وحديثاً قد تمت عبر تبرير أيديولوجي ديني.

وتستمد الأيديولوجيا الدينية من الدين طابعها وقوتها وتتشبه به، إذ إنها تنطوي على أشياء مطلقة كالحقيقة المطلقة، فضلاً عن الإيمان والتصديق، وهذا من شيمة أية أيديولوجيا بما فيها الأيديولوجيات الأرضية، والفرق بينهما أن الأيديولوجيا ذات الأصل الأرضي قابلة للدحض والتغيير، بينما الأيديولوجيا الدينية أكثر عناداً لأنها تدعى بالأصل الإلهي لها.

وتقوم الأيديولوجيا السياسية الدينية بوظيفة سلبية في التاريخ، فهي تدّعي بمصدرها المقدس، فيما الذي يفسر وجودها مصالح بشر يعيشون في الأرض التي تهب المعنى لمضمون ما يصوغون. وبالتالي يجب أن نفسر التحولات الأيديولوجية كلها، بما فيها الأيديولوجيا الدينية وأشكالها بوصفها تعبيراً عن تحولات ومشكلات الأرض وصراعاتها، وإن من أخطر ما يتعرض له الدين أنه في كثير من مراحل التاريخ يتحول إلى المبرر

الأيديولوجي لصراعات الأرض، فيتحول عند أصحاب المصالح إلى قوة أيديولوجية، تستمد قوتها من فكرة المقدس الديني الذي يؤمن به البشر.

ولهذا فإن فصل الدين عن السياسة هو حرمان أهل المصالح من تحويل الدين إلى أيديولوجيا، وإلى أي نوع من أنواع الأصوليات القاتلة، وحمايته من النزعات التعصبية، والاحتفاظ بطابعه الإنساني الأخلاقي ووظيفته الخيرية في الحياة المجتمعية. بل إن حماية الحياة الروحية للمجتمع، والدين، كما قلنا، جزء من هذه الحياة، لا تتم إلا بحماية الدين من الأيديولوجيا الدينية السياسية، ومن الخطاب الذي يبحث عن السلطة باسم الدين. وعندي أن الأيديولوجيا الدينية السياسية لا تبحث عن سلطة الدين على الأرض والدفاع عنه، بل تبحث عن سلطتها باسم الدين وتدافع عن مصالحها الأرضية. وما استغلال الوعي الديني الشعبي لتحويله إلى وعي أيديولوجي سياسي إلا تشويه ما بعده تشويه للوظيفة الروحية – الأخلاقية للدين.

ويطرح البعض تساؤلا : هل الإسلام دين أم أيديولوجية ؟ ويجيب بأن: الحقيقة أنه الاثنان معاً. ها هنا بالضبط تكمن المعضلة. هناك نفرٌ غير قليل من مُعتنقي الإسلام يرى فيه أيديولوجية. وأغلب الأحداث المُتفجرة على المسرح العالمي اليوم هي انعكاس مُباشر للصراع حول هذه الفكرة. صراع داخل الإسلام بين من يرونه ديناً من ناحية، وبين من يرونه أيديولوجية من ناحية أخرى، فضلاً عن صراع آخر أخطر بين الأيديولوجية الإسلامية والعالم الذي لم يعد فيه مكان للدين الأيديولوجي، أو الأيديولوجيات الدينية.

هذا الصراع هو قضية عصرنا. هو يكاد يكون القضية الدولية الأولى اليوم. السبب هو أن تعقيدات العالم المعاصر، وشبكاته المتداخلة ومجتمعاته المفتوحة هيأت لعدد محدود من الأفراد قُدرة مهولة على التأثير والإيذاء. معنى ذلك أنه حتى لو كان معتنقو "الأيديولوجية الإسلامية" قليلي العدد فإن خطرهم كبير. عند لحظة مُعينة، تقترب بشدة، سوف يتخلى الغرب عن الأسلوب البوليسي في مواجهة الإرهاب. وسيميل الجمهور إلى السياسيين الذين يرفعون لواء مواجهة "الأيديولوجية الإسلامية"، ولأن التداخل بين الأيديولوجية الإسلامية والدين الإسلامي وثيق وعميق، فإن أية مواجهة للأيديولوجية سوف تطال الدين نفسه ومعتنقيه. وستطال ملايين المسلمين الذين نسميهم بالمعتدلين، وهم في واقع الأمر المسلمون الذين لا يعتنقون الأيديولوجية الإسلامية، أي هؤلاء الذين يرون في الإسلام ديناً وليس عقيدة سياسية لتنظيم المُجتمع. والبديل الوحيد لهذا السيناريو القاتم هو أن نخوض معركتنا بشجاعة لإنقاذ الدين الإسلامي من براثن الأيديولوجية. إنها معركة

مئات الملايين من المسلمين الذين ينظرون للإسلام باعتباره ديناً يقربهم من الخالق، وليس أيديولوجية لحُكم الخلق. [12]

ويوضح لنا د. أحمد صبحي أوجه الشبه بين الأيديولوجيا والمعتقد الديني بل والدين فيقول: إن الأيديولوجيا تشترك مع الدين في أنها تشكل العلاقات الاجتماعية، فتوجد التحاما عضويا بين المعتنقين أو الأتباع، بينما تصبح علاقة خصومة إن لم تكن عداوة بين متبني الأيديولوجيا والمخالف لها. وتنشأ الأيديولوجيا كما ينشأ الدين من فرد على درجة عالية من الإبداع الفكري الروحي ، تتبعه الصفوة أو الأقلية المبدعة (الصحابة في الإسلام، والحواريون في المسيحية) يعملون على نشر العقيدة أو الإيديولوجيا باعتبارهم قدوة روحية أو فكرية، ويسعى كلاهما إلى القيام بعملية إحلال روحي وفكري ووجداني في كيان المجتمع لإزاحة الدين القديم أو الأيديولوجيا القديمة. وتنطوي الأيديولوجيات وكذلك الأديان على مجموعة من المعايير، ومن ثم تعطى كل منهما قيمة تعدها مطلقة، أي أنها حق وما عداها باطل ، ففي الدين توجد تعبيرات مثل طاعة ومعصية وحرام وحلال ومؤمن وكافر وتوحيد وشرك. وفي الأيديولوجيا صراع. (13)

ويرى أستاذنا د. صبحي ود. خليفة ود. فضل: أن الأيديولوجيا – والأديان – تواجه خلال تطورها مشكلة الهُوة (الفاصل الكبير) بين الفكر والواقع، حيث تواجه مشكلات أو عقبات ينهار أمامها الإجماع الذي تم إنجازه في عهد النشأة، فينشأ بين الأتباع صراع ناجم على اختلاف وجهات النظر: صراع بين السلفية وبين المبتدعة، صراع مرجعه هل نخضع الواقع للفكر والظروف المتجددة للنص؟ أم نخضع الفكر للواقع حيث تأويل النص؟ وقد يصبح ذلك الصراع في بعض الأحيان بأشد من العداء بين أصحاب أيديولوجيتين أو دينين مختلفين. ويبدو أن الصراع بين أتباع الأيديولوجيا الواحدة أو معتنقي الدين الواحد أمر لا مفر منه، إذ تصادف الأتباع مشكلات يختلفون عندها مثل: النص أم الفكر. (14)

ومهما يكن من التماس أوجه تشابه بين الأيديولوجيا والدين، فإن الفرق بينهما واضح، وجد خطير، فالدين الإسلامي مثلا ليس من إبداع أو اختراع أو فكر رسول الإسلام، بل مصدره رب رسول الإسلام. أما الأيديولوجيا مهما تسمت باسم الدين فهي من فكر متدين بالدين. والذي يحل هذا الإشكال هو التفرقة بين الدين والفكر الديني. فالدين أصول ثابتة مصدرها القرآن والسنة، ولا تخضع لفكر أحد أو عقيدته أو تصوراته. أما الفكر الديني فليس أصولا ثابتة، بل هو قائم على فهم بشري لأصول الإسلام والتعبير عنها بلغة المتدين. وبالتالي فهو أقرب للأيديولوجيا منها إلى الدين، وليس من الدين.

المبحث الثاني: تأصيل السمع والطاعة في القرآن والسنة

أولا : تأصيل السمع والطاعة في القرآن الكريم:

ورد لفظ السمع ومشتقاته، فعل للإنسان أو عدم فعله، في القرآن الكريم مائة وخمس مرات.(15) منها قوله تعالى (إنما يستجيب الذين يسمعون)[16] وقوله تعالى (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) [17]. وقد ورد لفظ الطاعة ومشتقاته، فعل للإنسان أو عدم فعله، ثمانون مرة.[18] منها قوله تعالى (ويقولون طاعة، فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول). [19] وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم). [20] وقد ورد لفظ السمع مقترنا بلفظ الطاعة فعل للإنسان في القرآن الكريم أربع مرات. [21] منها قوله تعالى (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله، ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) (22) وقوله تعالى (وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير). (23)

ويمكن القول إنه لا خلاف على فهم مدلول الآيات القرآنية التي تدعو المسلم إلى أن يسمع كلام الله ورسوله، وأن يطيعهما في فعل ما أمرا به وأن ينتهي عن ما نهيا عنه. وهذا هو جوهر مبدأ السمع والطاعة كما تحض عليه الآيات القرآنية، بحيث يكون السمع والطاعة خالصين لله ورسوله، لا لمنفعة مادية أو مصلحة دنيوية. وعندما يطيع المسلم ربه ونبيه فلابد أن يكون وقافا عند حدود النصوص التي تكون موضوعا للسمع والطاعة، ولا تكون طاعته مرهونة لهوى نفسه ورغبتها في السمع والطاعة، وإنما يجب عليه أن يطوع نفسه للطاعة الخالصة لأوامر الله ورسوله والانتهاء عما نهيا عنه. أما إذا خلط بين السمع والطاعة لله ورسوله وبين السمع والطاعة لهوى نفسه، أو قدّم هوى نفسه على السمع والطاعة لله ورسوله فقد أخل بمبدأ السمع والطاعة التديني الصحيح.

وإذا كان لا إشكال في فهم آيات القرآن الصريحة التي تحض على السمع والطاعة لله ورسوله، فإن الإشكال قد يكتنف الفهم عندما يتعلق السمع والطاعة بأولى الأمر من المؤمنين في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم). فإن الآية لم تصرح بذكر من هم أولى الأمر: هل هم أولو الأمر السياسي من الحكام، أم هم أولو الأمر العلمي من العلماء؟ وهل اتفق المفسرون على فهم معين لمدلول أولي الأمر في الآية؟ وهل طاعتهم ملزمة للمؤمن بمثل إلزام طاعة الله ورسوله؟ وهل هي طاعة (عمياء) لا تناقش الأمر، أم طاعة (مبصرة) تسمح بالشورى في الأمر؟

يذكر الطبري أن أهل التأويل اختلفوا في (أولي الأمر) الذين أمر الله عباده بطاعتهم في الآية، فقال بعضهم: هم الأمراء، وقال آخرون: هم أهل العلم والفقه، وقال آخرون: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقال آخرون: هم أبو بكر وعمر رحمهما الله. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال هم الأمراء والولاة؛ لصحة الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والولاة، فيما كان لله طاعة وللمسلمين مصلحة، كما قال الرسول (على المرء المسلم الطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فمن أُمر بمعصية فلا طاعة). (24)

ويوضح الطبري مبرره في اختيار أصح الأقوال من وجهة نظره بقوله: فإذا كان معلوما أنه لا طاعة واجبة لأحد غير الله أو رسوله أو إمام عادل، وكان الله قد أمر بقوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) بطاعة ذوي أمرنا، كان معلوما أن الذين أمر بطاعتهم تعالى ذكره من ذوي أمرنا هم الأئمة ومن ولّوه المسلمين، دون غيرهم من الناس، وأنه لا طاعة تجب لأحد فيما أمر ونهى فيما لم تقم حجة وجوبه، إلا للأئمة الذين ألزم الله عباده طاعتهم فيما أمروا به رعيتهم، مما هو مصلحة لعامة الرعية، فإن على من أمروه بذلك طاعتهم، وكذلك في كل ما لم يكن لله معصية. (25)

ويظهر أنه ليس هناك إجماع على أن المراد من (أولي الأمر) أنهم الأئمة والأمراء في الحكم. فقد أورد الراغب الأصفهاني أن عبد الله بن عباس قال: إن أولي الأمر هم الفقهاء وأهل الدين المطيعون لله. ثم ذكر الأصفهاني أن أولي الأمر الذين بهم يرتدع الناس أربعة: الأنبياء وحكمهم على ظاهر العامة والخاصة وعلى بواطنهم. والولاة وحكمهم على ظاهر الكافة دون بواطنهم. والحكماء وحكمهم على باطن الخاصة دون الظاهر. والواعظة وحكمهم على بواطن العامة دون ظواهرهم. (26)

والحق أن السمع والطاعة لله ورسوله هما بالأصالة الذاتية؛ باعتبار أوامرهما الشرعية الدينية الملزمة للمتدين، أما السمع والطاعة لأولي الأمر فهما بالنيابة التدينية التي تكون لهم بناء على الأمر الإلهي، وليست طاعة استقلالية لهم عن طاعة لله ورسوله، وليست طاعة منشئة لأوامر شرعية تدينية جديدة، أو أوامر مخالفة لأوامر الله ورسوله.

كما أن طاعة أولي الأمر ليست مطلقة، وإنما هي في إطار طاعة أوامر الله ورسوله؛ ولذلك لم يجعل الله لهم في الآية طاعة بمثل ماهي لله ورسوله، فلم يقل سبحانه (وأطيعوا أولي الأمر منكم)، ولكن قال سبحانه (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر

منكم)، ويفهم من ذلك عدم استقلالية الطاعة لأولي الأمر، لكن الطاعة لهم مرهونة بطاعتهم لله ورسوله، ومدى التزامهم بهذه الطاعة، فإن عصوها، فلا طاعة لهم من أحد.

أما الطاعة العمياء لأولي الأمر فهي لا شك أمر منكر لا يقره الدين والعقل. وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (حُق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك، فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا). [27]

ثانيا : تأصيل السمع والطاعة في الأحاديث النبوية

ورد لفظ السمع ولفظ الطاعة معا في كثير من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم. بعضها في السمع والطاعة للنبي، وبعضها الآخر في السمع والطاعة للأمراء الذين عينهم النبي في بعض الحروب والغزوات. ويظهر أنه لا إشكال في الأحاديث التي وردت عنه في طاعته صلى الله عليه وآله وسلم، فهي صريحة في أن المفهوم منها أن طاعته واجبة في كل ما يأمر به وينهى عنه، وأنه لن يأمر بمعصية أو أمر ذاتي شخصي يخالف أمر الله. ولكن الإشكال هو في فهم الأحاديث التي وردت في السمع والطاعة للأمراء الذين ولاّهم النبي على بعض المسلمين. أو الأمراء والأئمة والخلفاء الذين ولاهم المسلمون الإمارة والخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. هل طاعتهم لذواتهم ومطلقة في كل ما يأمرون، أم محدودة بالشرع؟

ومن أمثلة الأحاديث التي توجب السمع والطاعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: عن عبد الله بن عمر: كنا نبايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلقننا: على السمع والطاعة فيما استطعنا.[28] وتجد كثيرا من مثل هذا الحديث مروية عن غير واحد من الصحابة أيضا بصيغة (بايعت النبي على السمع والطاعة، قال لي: فيما استطعت). وتقييد النبي الطاعة بالاستطاعة، أي فيما يقدر عليه المسلم المبايع له، أمر مهم جدا؛ من حيث أنه صلى الله عليه وسلم يدرك مدى القدرة الإنسانية البشرية المحدودة في تنفيذ الأوامر الإلهية، فضلا عن معرفته عليه الصلاة والسلام بالفروق الفردية بين الصحابة في تنفيذ أوامر الطاعة، وأنهم جميعا ليسوا على قدر واحد في ذلك.

وتكثر أيضا الأحاديث النبوية التي تأمر بالسمع والطاعة للأمراء، سواء الذين أمَّرهم النبي في حياته، أو الذين أمَّرهم المسلمون على أنفسهم بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم. ومن أشهر هذه الأحاديث : عن العرباض بن سارية : قال رسول الله (السمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ). [29] وعن عبد الله بن عمر: قال رسول الله (السمع والطاعة حق، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة) [30]

ويمكن القول إن أيديولوجيا السمع والطاعة قد بدأت إرهاصاتها الأولى عند أحد الصحابة من الأنصار، استعمله النبي أميرا على سرية قتال، فخلط (فكرته) عن طاعته لذاته، بطاعته لأجل الله ورسوله، و(اعتقد) أن طاعته لذاته في الغضب والرضا مطلقة، لا يجوز لأحد من تابعيه أن يخالفها، حتى لو أمره أن يلقي بنفسه في النار. ففي الحديث (عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم سرية، فاستعمل عليها رجلا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب منهم، فقال: أليس أمركم النبي أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطبا، فجمعوا. فقال : أوقدوا نارا، فأوقدوها. فقال: ادخلوها فيها. فهمّوا بالدخول فيها. وجعل بعضهم يمسك بعضا ويقولون: فررنا إلى النبي من النار. فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة. الطاعة في المعروف.) [31]

وإن هذا النوع من أيديولوجيا السمع والطاعة المطلقة يلزم لمقاومته عقل نقدي واع، يمكنه أن يبث في المجموع تعقلا جمعيا مثله، برفض الطاعة فيما ليس معروفا من أمر الله ورسوله. والعجيب أن بعض الروايات تذكر أن شابا حذر هؤلاء الصحابة من طاعة ذلك الأمير (فقال لهم شاب منهم: لا تعجلوا بدخولها).(32)

ويمكن القول إن مقولة هذا الشاب من الصحابة (لا تعجلوا بدخولها) بعقله الواعي المتنور جعلتهم يتراجعون عن دخول هذه النار حتى انطفأت، فأنقذهم منها. وإن أيديولوجيا السمع والطاعة التسلطية المطلقة قد تأمر بالهلاك ولو بالنار التي حُرّم العذاب بها؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا رب النار. وهكذا قد يفعل الشيوخ والأمراء بأتباعهم الذين يطيعون أيديولوجيتهم طاعة عمياء، دون تفكير نقدي، كما سيتضح من ثنايا البحث.

المبحث الثالث: مفهوم التماهي العقدي وتبعية السمع والطاعة

أولا : مفهوم التماهي العقدي:

(أ) التماهي لغة واصطلاحا

1- التماهي لغة : لفظة التماهي مشتقة من مادة (م و هـ) وهي في كثير من المعاجم اللغوية بمعنى الخلط والامتزاج بين شيئين أو أمرين. وتموه : مطاوع موّه في الجميع. والمموه : المطلي بذهب أو فضة وليس جوهره منهما، والمُلبَس بالباطل. وماه : خلط . ومنه التمويه وهو التلبيس، ومنه قيل للمخادع مموه. وموه عليه الخبر: زوره وزخرفه. وموه

الحق: لبسه بالباطل، أي أفسده بظواهر خادعة. وقد موه فلان باطله، إذا زيّنه وأراه حقا، وهو في الحقيقة ليس كذلك. (33)

2- التماهي اصطلاحا: يعرف التماهي اصطلاحا بأنه : عملية نفسية يتمثل الشخص من خلالها جانبا أو خاصية أو صفة من الآخر، ويتحول كليا أو جزيا على غراره. وتتكون الشخصية عادة من سلسلة من التماهيات الجزئية بأشخاص مرجعيين مثل الأهل والأساتذة والرؤساء والأصدقاء والزعماء، والشيوخ والأمراء. ويختلف التماهي عن المحاكاة، في أن المحاكاة تظل سطحية وواعية، أما التماهي فهو عملية نفسية لا واعية تؤدي إلى انبناء الشخصية تبعا لنموذج معين. فتأثير التماهي بحيث يصبح الشخص هو الآخر أو يكتسب هويته، حاسم في تكوين الشخصية. وأساس التماهي هو الإعجاب. وفي الحالات المرضية يصل التماهي درجة كلية مما يفقد المريض كل استقلالية وذاتية في حالة من الذوبان في الآخر فكريا وعمليا. (34)

وقد يتخذ التماهي صورا وأنماطا متعددة منها: 1- التماهي الإسقاطي: وهو إدراك الآخر كجزء من أنفسنا وتحديدا كمعبر ومجسد لإحدى نزعاتنا التي نخشاها أو صفاتنا التي نفر منها. وقد يعمل التماهي الإسقاطي باتجاه الحب، فقد نحب شخصا ليس لما هو عليه ليس لما هو عليه ككائن مستقل، بل لما نسقطه عليه من مثالية نرغبها، جاعلين منه رمز الحب أو الطهر أو الخير. 2- التماهي بالمعتدي: وهو تمثل عداونية المعتدي، ولعب دورا عداونيا. والتماهي بالمعتدي قد يتخذ شكل التماهي بسلوكه أو بخصائصه أو بأدواته أو بعدوانيته. وتشيع هذه الظاهرة كثيرا بين الشعوب المغلوبة التي تتماهى بعدوان المستعمر. 3- التماهي بالمتسلط: وهو يأخذ ثلاثة أشكال رئيسية: التماهي بأحكام المتسلط، والتماهي بعدوانه، والتماهي بأسلوب حياته ومثله العليا وقيمه. ويقوم الشكل الأول والثاني على خشية المتسلط ورهبة جانبه، أما الأخير فيقوم على الإعجاب والرغبة في التقرب من نمطه الوجودي. وأقصى حالات التماهي بالمتسلط تأخذ شكل الاستلاب العقائدي، وذلك بتمثل واعتناق قيم النظام والانضباط وطاعة الرؤساء الكبار. (35)

ويظهر أن ابن خلدون كان يقصد نوع التماهي بالمعتدي حين قال: إن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب: في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده؛ والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، وإنما هو لكمال الغالب، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء. (36)

(ب) مفهوم التماهي العقدي وخطره التديني:

يمكن القول إن التماهي العقدي هو أحد أنواع التماهي التي تعتري النفس الإنسانية عن طريق الوجدانيات الإيمانية. وهو حالة نفسية ليست عقلانية يجد فيها التابع – سواء أكان مريدا في طرق التصوف أو عضوا في جماعات إسلامية – نفسه في توحد عقدي مع شيخه أو أميره، فيعتقد في الإيمان والإسلام ما يعتقده الشيخ أو الأمير، اعتقادا تاما متطابقا، لا يغير فيه شيئا، ولا يتجاوز فيه عن شيء مما يقرره الشيخ أو الأمير، ولا يجد في نفسه قدرة على التفكير المستقل أو النقد، سواء لما يقوله الشيخ والأمير أو لما لم يقله. ولا يجد في نفسه قدرة على فهم مختلف لأي نص ديني خارج فهم وتعاليم الشيخ أو الأمير. ومن ثم تصير عقيدة المريد أو التابع الإيمانية هي عقيدة الشيخ أو الأمير، بمنطوق نصوصها وبتنظير فهمها.

وفي هذا التماهي العقدي يعتقد المريد أو التابع أن إيمان الشيخ هو إيمانه هو، بل إسلام الشيخ هو إسلامه هو. وكأنه لا إيمان ولا إسلام إلا إسلام وإيمان الشيخ أو الأمير، وكأنه ألغى ذاته التدينية الإيمانية التي هي في الحقيقة تسلم وتؤمن بشكل مستقل. وإن هذا التماهي العقدي يشل العقل ويوقف التفكير النقدي الذي هو طبيعة ذاتية في الإنسان، فما بالك بالمسلم أو المؤمن؟. وإذا عطَّل المسلم عقله عن التفكير فماذا يفعل به إذن؟

والحق أن التماهي العقدي يحرم المجتمع الإسلامي وثقافته وجود البدائل المطروحة في الفكر الإسلامي وثقافته في البحث والنقاش واختلاف الرؤى والأفكار التي تثري المجتمع كله. ومن ثم يوصل التماهي العقدي الجميع إلى الجمود الفكري والعقائدي، ويؤدي في الغالب إلى التأخر والتخلف وحرمان الأمة من إعمال العقل فيما ينفع ويفيد ليس إيمانيا عقديا فحسب، بل عمليا حياتيا أيضا. والحق أيضا أن الإسلام كان حريصا على إعمال المسلم عقله مستقلا لفهم الإسلام والإيمان.

ثانيا : تبعية السمع والطاعة للتماهي العقدي

يمكن القول إن السمع والطاعة لا يكون إلا عن عقيدة وقناعة. من التابع للمتبوع. وهذا الأمر طالما ظل في إطار الإقناع أو الاقتناع، فهو أمر محمود. إنما الإشكال في انتقاله من الجانب العقلي الإقناعي إلى الجانب الوجداني لمجرد المتابعة والسمع والطاعة دون قناعة عقلية ودون تفكير مستق واع.

والحقيقة أن المريدين في الطرق الصوفية والأعضاء في الجماعات الإسلامية إنما يسمعون ويطيعون لشيوخهم وإمرائهم بناء على التماهي العقدي معهم. فهم لما اعتقدوا أن

عقيدتهم وإيمانهم إنما هي عقيدة وإيمان شيوخهم وأمرائهم، سمعوا لهم وأطاعوهم. والحق أنه مهما كان مقام شيوخهم وأمرائهم عندهم، ومهما كانت محبتهم لهم، فهم ليسوا في ذواتهم شيوخهم، وأنهم هم الذين يؤمنون ويعتقدون لأنفسهم، وليس شيوخهم وأمراؤهم يؤمنون ويعتقدون لهم، وهم يجب أن يفهموا فهما مستقلا عنهم. ولا يعني استقلال الفهم هنا اختلاف الإيمان بأصول إيمانية غير التي يؤمن بها شيوخهم. إنما يجب على الجميع أن يؤمنوا بأصول الإيمان وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر. ولا يعني الاشتراك في الإيمان بأصول ثابتة محددة أن يكون فهم هذه الأصول واحدا فقط من جانب الشيوخ والأمراء، بل يجب على المريدين والتابعين أن يكون لهم فهما مستقلا في ذلك.

ومن عجيب ما تجد في سمع وطاعة المريدين والأتباع لشيوخهم وأمرائهم وفق التماهي العقدي، أنهم يعبرون بألفاظ وتعبيرات خطيرة عن شدة طاعتهم وتماهيهم معهم. مثل قولهم: (ظِفر اصبع المرشد عندي برقبة أبي وأمي) و (لو أن الأعمار توهب، لوهبت للشيخ ما تبقى من عمري) و (إن الشيخ يمثلني حرفيا، ولا اعترض على رأيه وكلامه) و(في عقيدتي التي أدين الله بها، وألقاه عليها، أن كلام الشيخ لا يقل منزلة في قلبي عن كلام الله ورسوله؛ لأن الشرح والتوضيح للنص لا يقل أهمية عن النص) و (إذا قال الإمام، قال الله). وهم يقولون هذه التعبيرات بتعصب شديد.

إن هذه التعبيرات العقدية الخطيرة من المريدين والتابعين نحو شيوخهم وأمرائهم يجب مواجهتها بالنقد الشديد، بل بالنقض وإثبات تهافتها. وهي تدل في رأينا ليس فحسب على ضعف أو نقص إيماني لديهم، بل تدل أيضا على انعدام وعي إيماني عقدي. إذ أن الاستقلال التديني الذاتي والتعبير الإيماني عنه، يجب وجوده لدى كل مؤمن، وهو المرتكز الأساسي لتحصيل الأمن العقدي في الحياة. نعم قد يشعر المريد والتابع بأمن عقدي في ظل تبعيته لشيخه أو أميره، لكن الحقيقة أن هذا شعور زائف يزول بزوال الشيخ أو الأمير، وقد ينتهي هذا الشعور عند اللحظة التي ينتبه عقله التديني فيها إلى استقلال تفكيره في فهم دينه وإيمانه ومحاولة التعبير عن هذا الفهم والإيمان بلغته وأسلوبه المختلف.

والسؤال الخطير المتعلق بمنهجية الشيوخ والأمراء مع أتباعهم: هل يعلمونهم تعليم تلقين وحفظ، أم تعليم تفكير وفهم؟ هل يعلمونهم ليوم يتركونهم فيه، أم يعلمونهم باعتبار أنهم مسؤولون عن عقل كل منهم بما فيه؟ الحقيقة أن هؤلاء الشيوخ والأمراء هم الذين غرسوا في نفوس مريديهم وأتباعهم بذرة الطاعة الإيمانية العقدية العمياء، طاعة لقبول ما

يريدون لهم أن يفهموه، دون اعتراض أو حتى مناقشة. وإذا تجرأ أحد هؤلاء المريدين والأتباع وحاول فقط أن يفهم أمرا فهما مستقلا عما يقول به الشيخ أو الأمير، فإنه سيواجه بسيل من تعبيرات التحقير لذاته وعقله مثل: (من أنت يا فسل حتى تقول بكلام يخالف كلامي) و (لا تجادل فإن الجدال مذموم) و (من اعترض انطرد) و (كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي مغسله) و (اترك عقلك حيث تترك حذاءك). وقد يتعرض للعقوبة أو للطرد من الطريقة الصوفية أو الجماعة الإسلامية، وغضب الشيخ أوالأمير عليه.

ومن عجب أن شيوخ الطرق الصوفية وأمراء الجماعات الإسلامية يعتقدون أن عرشهم الدعوي سيتزلزل وأن طريقتهم وجماعتهم ستنتهي إذا هم علّموا أتباعهم كيف يمكن لهم أن يفكروا تفكيرا مستقلا عنهم في قضايا الإيمان والتدين. وحجتهم في ذلك أنه (ليس كل مؤمن يمكنه أن ينظّر للإيمان) و (أين العوام من فهم عميق الإيمان) و (يجب الجام العوام عن علم الكلام). والحقيقة أن هؤلاء الشيوخ والأمراء يخافون على مكانتهم ومكاسبهم، إذا فهم أتباعهم الدين والإيمان فهما مستقلا عنهم، ومن ثم سينفضون عنهم. وهذا هو الكساد الدعوي الخالص. والفشل الجماعاتي التام.

ولو تأسى هؤلاء الشيوخ والأمراء مع أتباعهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لكان خيرا لهم. فقد كان صلى الله عليه وسلم مع تأييده بالوحي من الله، يُعلّم أتباعه بإعمال عقولهم بالتفكير المستقل في فهم دينهم، بل أيضا في أدق الأمور الجهادية وفي أصعب اللحظات الأخيرة قبل لقاء العدو، كما هو مشهور في أخذه برأي الحباب بن المنذر وتنفيذه ما ارتآه في غزوة بدر الكبرى، دون حجر على رأيه أو تكبر عليه وتعصب ضده.

المبحث الرابع : أيديولوجيا السمع والطاعة عند شيخ الطريقة:

تتضح تجليات أيديولوجيا السمع والطاعة عند شيخ الطريقة في علاقته بالمريد: كيف يجعل المريد ينضم إليه، وكيف يحببه في نفسه، وكيف يعوده على السمع الطاعة، وكيف يربيه أخلاقيا وسلوكيا، وكيف يقسو أحيانا عليه، وما هي التكاليف التي يكلفه بها في الطريق إلى الله، وكيف يختبره وينظر في حاله، ثم كيف يكون رد فعل المريد عليه.

ويمكن القول إن أيديولوجيا السمع والطاعة عند شيخ الطريقة لها جانبان: الأول: جانب موضوعي: ويكون فيه اعتماد السمع والطاعة من المريد للشيخ على أوامر الله ورسوله ونواهيهما، وفيه يأمر الشيخ مريده وينهاه بأوامر ونواهي قد أمر الله ورسوله ونهيا بهما جميع المسلمين والمؤمنين، ويدخل ضمنها الشيخ مع المريد في التنفيذ أو الاجتناب. الثاني: جانب ذاتي: ويكون فيه اعتماد السمع والطاعة من المريد للشيخ على أوامر ونواهي

ذاتية من الشيخ، من حيث أنه هو الذي أتى بها من عنده، وليس لها مصدرية صريحة في القرآن والسنة، مثل الأوراد والتزام الذكر بطريقة معينة وعدد معين من الذكر بصيغة معينة، فضلا عن التكاليف الدينية التي يلزمه بها تأديبا له. وهذا الجانب هو الذي تظهر فيه أيديولوجيا الشيخ في السمع والطاعة بشكل أوضح، من حيث أنه ابتكار تديني إلزامي ذاتي من الشيخ لمريده؛ قد يعلله بتربية المريد وتعويده على السلوك الملتزم القويم في الطريق إلى الله.

ولا يصير سمعا وطاعة من المريد للشيخ إلا بعد أن يأخذ الشيخ العهد على المريد، فهو أساس العلاقة بينهما، وسبب التقائهما ورابط المريد بالشيخ، بل هو روح العلاقة في الله بينهما، أبوة من الشيخ وبنوة من المريد. ومهما تعددت صور وصيغ أخذ الشيخ العهد على المريد، فإنها لا تغفل أبدا لفظ الطاعة من المريد للشيخ، بغض النظر عن كونها بصورة جماعية أو فردية. سواء تم أخذ العهد بواسطة شيخ الطريقة ذاته أو بمن ينوب عنه في هذا الأمر، ممن تم أخذ البيعة عليه من قبل.

وسوف نوضح أولا مفهوم المريد ومفهوم شيخ الطريقة في اصطلاح الصوفية. ثم نوضح ثانيا كيف أن أخذ العهد هو أساس السمع والطاعة. ثم نشرح ثالثا الجانب الموضوعي والجانب الذاتي في أيديولوجيا السمع والطاعة عند شيخ الطريقة. ثم نتناول رابعا تقييم أيديولوجيا السمع والطاعة. كما يلي:

أولا: مفهوم المريد وما يجب عليه ومفهوم شيخ الطريقة وما يجب له

(أ) مفهوم المريد وما يجب عليه وضرورة اتخاذه شيخا واحدا

المريد هو طالب الحقيقة. [37] وهو الذي صح له الابتداء أو حصل في جملة المنقطعين إلى الله تعالى. [38] وهو سالك الطريق الذي يسير في الطريقة بحسب إرشادات شيخه، فيسلك طريقه كما رسمه له شيخه حتى يصل إلى غايته. [39] وهو الذي سبق اجتهاده كشوفه. وهو الذي يريده الله تعالى، فيقبل عليه بقلبه، ويحدث فيه لطفا يثير منه الاجتهاد فيه والإقبال عليه والإرادة له، ثم يكاشفه الأحوال. [40] ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب مِن مذاهب مَن ليس مِن هذه الطريقة. [41]

ويجب على المريد الصادق في عزمه على سلوك الطريقة أن يلتزم بأمور متعددة منها: 1- الصدق في الإرادة، وعلامة ذلك إعداد العدة. 2- التسبب إلى الطاعة، وعلامة ذلك هجر قرناء السوء. 3- المعرفة بحال نفسه، وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس. 4- لابد له من مجالسة عالم بالله، وعلامة ذلك إيثاره (أي الشيخ المربي) على ما سواه. 5-

لابد له من توبة نصوح، وعلامة ذلك قطع أسباب الهوى والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه. 6- لابد له من طعمة حلال، وعلامة ذلك أن يوافق الشرع. 7- لا بد له من قرين صالح، وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى، ونهيه إياه عن الإثم والعدوان. [42] ولابد له من الجوع والسهر والصمت والخلوة. [43]

ويوجب الصوفية وجوبا عينيا على المريد اتخاذ الشيخ، حيث يقول أبو حامد الغزالي: (المريد يحتاج إلى شيخ يقتدي به لا محالة؛ ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة.) (44) ويكاد يجمع الصوفية على القول إن من لم يكن له شيخ (صوفي)، فإن شيخه الشيطان أو إبليس. ومن سلك الطريق بغير شيخ، ضل وأضل. [45]

ويبالغ الصوفية في وصف ضرورة تمسك المريد بالشيخ ومتابعته، فيقول الغزالي: (فمعتصم المريد، شيخه، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد، بحيث يفوض إليه أمره بالكلية، ولا يخالفه في وِرده، ولا يُبقي في متبعته شيئا ولا يذر، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه – لو أخطأ – أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب.) [46] وقد أورد الشعراني أن إبراهيم الدسوقي كان يقول : (المريد الصادق مع شيخه، كالميت مع مغسله، لا كلام ولا حركة، ولا يقدر ينطق بين يديه من هيبته، ولا يدخل ولا يخرج، ولا يخالط أحدا، ولا يشتغل بعلم ولا قرآن ولا ذكر إلا بإذنه.) [47]

ثم تصل عندهم المبالغة في تنفيذ أوامر الشيخ حدا لا يصح في التدين أصلا، وذلك عند تعارض أمر الشيخ للمريد مع رغبة المريد في أداء الصلاة، حيث يقول أبو يزيد البسطامي :(إذا أمر الشيخ المريد أمرا من أمور الدنيا وبعثه في إصلاحه، فيقيم مؤذن في بعض طرقاته على مسجد من المساجد، فيقول: أدخل أولا المسجد وأصلي، ثم أكون ما وراء ما بعثني إليه، فقد وقع في بئر لا يتبين أسفلها، يعني ليس لها مقر.) [48]

ولا يقف الأمر لدى الصوفية بالمريد عند تمام الطاعة أو الطاعة المطلقة للشيخ، بل إنهم يوجبون على المريد أن يعتقد الكمال في شيخه، فقد أورد الشعراني أن عبد القادر الجيلاني قال (من لم يعتقد في شيخه الكمال، لا يفلح أبدا.) وقال عدي بن مسافر – تلميذ الجيلاني- لا تنتفع بشيخك إلا إذا كان اعتقادك فيه فوق كل اعتقاد. ([49] ويظهر أن هذا الاعتقاد قد أثر على معتقد المريد فأصبح لا يفعل شيئا حتى يستأذن الشيخ بقلبه، فقد كان علي المرصفي يقول: (لما أخذ عليَّ شيخي العهد بأني لا أخالفه ولا أكتم عنه شيئا من

أمري، كنت لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا أقرب زوجتي؛ حتى أقول بقلبي : دستور يا سيدي.) [50]

وهكذا تظهر أيديولوجيا السمع والطاعة في مفهوم المريد، وذلك بجعل الصوفية المريد تابع للشيخ متابعة مطلقة في الاعتقاد والسلوك في سائر شئون الحياة، ويكاد في هذه الأيديولوجيا أن تنمحي تماما شخصية المريد بجوار شخصية الشيخ، بل إن العقل التديني المستقل للمريد قد يتلاشى فعلا، ولا يبقى إلا أمر الشيخ ومطلبه ورغبته. وما على المريد إلا السمع والطاعة المطلقة، كأنها الطاعة الآلية إن جاز القول في هذا المقام. ويحظرون على المريد أن يناقش الشيخ أو يسأله في أمر لم يوضحه له من قبل، وقد وضعوا قاعدة (ما أفلح مريد قال لشيخه لِمَ)، فعطلوا عقل المريد عن التفكير الحر المستقل، الذي هو في الحقيقة أمر مهم في تدين المسلم. والنتيجة أنهم أوهموا المريد أنه لا ولن يصل إلى الله إلا عن طريق الشيخ، فغالى المريد في شيخه غلوا شديدا؛ حتى بلغ بأحدهم أن أقسم لي بالله أن شيخه أفضل من محمد صلى الله عله وآله وسلم، وعندما طالبته بالدليل قال (لأن النبي صلى الله عليه وسلم يأتي كل يوم ويحضر درس شيخي يتعلم منه العلم اللدني) ([51]

(ب) مفهوم شيخ الطريقة وما يجب له من المريد

قبل بيان مفهوم شيخ الطريقة، نوضح مفهوم الطريقة عند الصوفية: يحلو للصوفية للتأصيل لمفهوم الطريقة أن يذكروا قول الله تعالى (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) (52) وقوله تعالى (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) [53] وغيرها من الآيات التي فيها لفظة طريقة وطرق في القرآن الكريم. يدللون بذلك على أن مفهوم الطريقة الصوفية أصله موجود في القرآن. والحق أن هذا اللفظ الوارد في القرآن لم يذكر ملحقا به كلمة الصوفية (طريقة صوفية)، بل هو لفظ عام، وإن قصد به التخصيص فهو على معنى طريقة الله ورسوله في التي يجب الالتزام بها.

والطريقة في اصطلاح الصوفية يوضحها صاحب كتاب (ظهور الحقائق في بيان الطرائق) بقوله: (والطريقة عند أهل الحقيقة عبارة عن مراسم الله تعلى وأحكامه التكليفية التي لا رخصة فيها. وهي المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقي والمقامات.) [54] والسير في الطريقة إلى الله هو سير حقيقي ومعنوي بتزكية النفس والجوارح من منكرات الأخلاق والأعمال؛ وبذلك يقرب العبد من حضرة الله قربا معنويا. [55] وعلى ذلك يكون معنى الطريقة هو مجموعة الآداب والأخلاق والعقائد التي يتمسك بها طائفة الصوفية. وتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال

بكنه الهمة على الله تعالى. وقد وجدنا الطريقة عهدا بين شيخ ومريده على التوبة والاستقامة، والدخول في طريق الله وذكره دائما، مع القيام بأوراد وأحزاب شيخ الطريقة. (56)

وأما مفهوم شيخ الطريقة: فهو المؤسس الأول للطريقة، ثم يطلق اللقب أيضا بعد وفاة مؤسسها على رئيسها القائم عليها في كل عصر. وإذا كان ثم ضرورة أساسية لوجود شيخ الطريقة؛ فهي لأجل تربية وتعليم المريدين وترقيتهم في مدارج السالكين إلى الله تعالى. حيث يقول شهاب الدين السهروردي: (ولا بد للمريد من شيخ مرشد إلى الحق يرشده، ويلقنه الذكر، ويلقي في روعه النور، فإن تلقين الشيخ يلقح باطن المريد، ويسري فيه كأنما يلقح من سراج. فعلى المريد اختيار الشيخ الصالح المشهود له بالعلم والمعارف واتقاء المحارم.) (57)

ويكثر تنظير الصوفية حول شروط شيخ الطريقة، وهم يذكرون لذلك شروطا كثيرة، وكأنهم يحتاطون في ضرورة أن يكون شيخ الطريقة على أكمل وجه في العلم والسلوك والتعامل مع المريدين. وبعض هذه الشروط تخص الشيخ في ذاته وتدرجه قبل المشيخة، وبعضها يخص حاله، وبعضها يخص تعامله مع المريدين. حيث يقول الجنيد : (لا يستحق أن يكون شيخا حتى يأخذ حظه من كل علم شرعي، وأن يتورع عن جميع المحارم، وأن يزهد في الدنيا، وألا يتسرع في مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه. وأن يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس، وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة، وأن يزن أقواله وأفعاله بميزان الشريعة والطريقة.) (58)

وأما الآداب التي يتبعها يجب أن يتبعها الشيخ مع المريدين فمنها: النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم. والتنزه عن مال المريدين. وأن يحفظ أسرار المريدين. وأن يقتصر بكل مريد على قدر فهمه. وأن ينصح المريدين بالتلميح لا بالتصريح. وألا يبدأ بالشدة في محاسبة المريدين. وأن يتعامل معهم بطريقة التحويل التدريجي. (59)

والحقيقة أن هذه الشروط والصفات التي اشترطها الصوفية في شيخ الطريقة، بغض النظر عن مدى تحققها في الواقع العملي في حياة الشيخ وسلوكياته، جعلت مكانة الشيخ في نفوس أتباعه ومريديه عالية وكبيرة جدا، بل إنهم اعتبروا أنه يحمل في ذاته (كل سمات القائد الكارزمي) (60) ومن ثم صاروا يعبرون عن شخصه ويصفون ذاته بكل صفات الهيبة والجلال والجمال والعلم والحلم والقدرة على تذليل الصعاب وتيسير كل عسير والتحلي بكل ما من شأنه أن يقترب بصاحبه من الكمال والمثال.

فمثلا يصف مريدو الطريقة الحامدية الشاذلية شيخهم سلامة الراضي بقولهم : إن جمال الشيخ سلامة الراضي الذي كان يُفرح المريد في بادئ الأمر ينقلب إلى جلال وهيبة تقبضه وتبسطه وتطويه وتنشره، فيخافه ويحذره، لكنه لا يجد عنه مصرفا؛ لأنه مقيد بحبه، موثق بقلبه. يحبه الحب كله ويخافه الخوف كله. فيا له من محب يخاف محبوبه، وراغب يرهب مرغوبه. إن الشيخ سلامة أكثر من أمة كاملة. [61] وبمثل هذا التعبير يقول مريدو كل طريقة صوفية في شيخهم. لكن أين الواقع العملي من التنظير القولي.

وهكذا تظهر أيديولوجيا السمع والطاعة في مفهوم الشيخ عند الصوفية، وذلك بجعلهم الشيخ متبوعا ومسموعا لا يملك مريدوه مخالفته، بل إنهم يعبرون عنه بما يجعله في مصاف الأنبياء من المحبة والهيبة والقدرة على ما لا يقدر عليه البشر الآخرون. ويكاد في هذه الأيديولوجيا أن تتحول شخصية الشيخ إلى موضوع إيمان يأتي بعد الإيمان بالأصول الإيمانية لدى المريد، بل هي بالفعل موضوعة للإيمان من حيث المغالاة في التعبير عن شخصية الشيخ في باب التدين. والحقيقة التي يمكن تأكيدها بناء على هذه الأيديولوجية هي: لقد تشدد الشيخ في وصف نفسه، فغالى المريد في وصف شيخه.

ثانيا: العهد والبيعة أساس السمع والطاعة لشيخ الطريقة

العهد والبيعة عند الصوفية هو أساس السمع والطاعة من المريد للشيخ الذي ارتضاه لنفسه مرشدا ومعلما. وهو الركن الثالث من أركان الطريق الصوفي: فإذا وُجد الشيخ والمريد، فلابد من عهد يربط بينهما، وبيعة توثق السمع والطاعة في الطريق الذي يكون فيه المريد تابعا والشيخ متبوعا. حيث يعاهد المريد شيخ الطريقة أو خليفته أو نائبه عن الطريقة، بالسمع والطاعة والمحبة وقراءة الأوراد والأحزاب والأذكار بحسب ما يحدد الشيخ للمريد ووقتما يحدد. وأن يلتزم المريد بطريقة الشيخ ملازمة تامة، ولا يستبدلها بطريقة أخرى طيلة حياته حتى الموت.

ويشترط الصوفية أن لا يأخذ الشيخ من أي مريد العهد لمجرد رغبته في ذلك، بل لابد أن يمتحنه ليعرف حاله وتدينه وصدق نيته على المضي والالتزام بالطريق، بل لابد أن يعرف كل شيء عن شخصيته قبل أن يوافق على ضمه إلى طريقه ويصير من جملة أتباعه ومريديه. ([62])

ويلتمس شيوخ الطرق الصوفية تأصيلا إسلاميا نبويا في أخذ العهد والبيعة على المريدين من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في جماعة من أصحابه فقال بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تأتوا

برهان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئا من ذلك ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفى عنه. فبابعناه على ذلك. [63] وقد جعل أئمة الطريق هذا الحديث أصلا في أخذ العهد بعد تقرير الإيمان، ومقصده التوثق بمقتضيات الإيمان حتى لا يخل به. [64]

ويسبق أخذ العهد والبيعة طقوس وإجراءات يتم تنفيذها بين الشيخ والمريد، وهي تتنوع وتختلف من طريقة لأخرى، منها: تطهر المريد، وتوبته وصلاة ركعتي التوبة، والمصافحة، وتشبيك الأصابع، وأن يغمض المريد عينيه، وأن يكون في حالة خشوع تام وسكون، ولا يتكلم ولا يرد على خاطره غير ما هو فيه، وصورة الشيخ يجب أن تنطبع في قلبه. ثم يتلو قول الله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) [65] ثم يتعوذ ويقول أستغفر الله العظيم ثلاث مرات، ثم يتلو خلف الشيخ صيغة العهد، ويستحضر في قلبه أن يد الشيخ في هذا العهد هي نيابة عن يد رسول الله، وأنه بذلك عاهد رسول الله، وأنه يتعهد بالوفاء بهذا العهد بنفسه وماله طول حياته وحتى مماته، لا ينقضه ولا يغيره أبدا. [66]

ولا يأخذ العهد والبيعة صيغة واحدة عند جميع شيوخ الطرق الصوفية، ولكنها تتعدد تقريبا بعدد الشيوخ والطرق. والذي يهمنا في هذا المقام أن الصيغ جميعها لا تخلو من التصريح بالسمع والطاعة للشيخ أو التلميح به باعتباره سمعا وطاعة لله ورسوله. من ذلك مثلا صيغة العهد المتبع مع شيخ الطريقة الحامدية الشاذلية، حيث يقول المريد (إني عاهدت الله وأعاهد الله وأعهد إلى الله، وأشهد على نفسي بأنني، قد التزمت السمع والطاعة لشيخي هذا، فلا أخالفه بقلبي ولا بجوارحي ولا لساني، وقد جعلت هذا نذرا عليَّ لله، وعهدا شرعيا صحيحا صريحا، جازما ناجزا باتا، ظاهرا وباطنا، ما دمت حيا، وعلى نية شيخي هذا، ومطالبا به في الدنيا والآخرة، ومسئولا عنه بين يدي الله تعالى. فإذا خالفت شيخي هذا أو أنكرت عليه أو اعترضت أو غيرت أو بدلت، أكون خائنا وناكثا وناقضا لعهود الله ومواثيقه.) [67]

وتظهر أيديولوجيا السمع والطاعة عند شيخ الطريقة في هذا العهد وغيره، حيث أنه يؤصل ويكرس الخضوع التام والانصياع الكامل من المريد لشيخه، بحيث لا ينازعه عقلا، ولا يطلب منه دليلا، وألا يسأله عن شيء. وأن يلقي بإرادته ونفسه بين يدي شيخه، وأن يكون في ذلك كالميت بين يدي مغسله، حتى لو كان الشيخ في فعله أو قوله على غير ظاهر الشرع الشريف.

وقد تعرض أخذ العهد عند شيوخ الطرق لمخالفات عديدة في سبيل تطبيقهم له على أكبر عدد من الناس، مما أدى إلى انتقادات شديدة، منها: ارتحالهم في طلب أخذ العهد على الناس، والنزول عليهم في بلادهم. وحمل الناس على ذلك بالقهر مرة وبالحيلة أخرى، جهلة أو رؤوسا. وقبول كل أحد فيه، على ما هو عليه، وتقريره على ما هو به. واعتقادهم أن التوبة لا تصح ولا تكمل إلا بشيخ يقبل التوبة. واعتقادهم أن الشيخ يكفي عن العمل، ولا يصح العمل إلا بالعهد. واشتراط بعضهم على مريده أن يعتقد فيه العصمة وأنه على الحق. وأن يصير المريد بعد العهد خادما مملوكا لا يباع وأسيرا لا يفدى. والتعصب بتذكير المريد بالموالاة والمعاداة على ذات الشيخ.[68]

ثالثا : جانبا أيديولوجيا السمع والطاعة عند شيخ الطريقة

(أ) الجانب الموضوعي في السمع والطاعة عند شيخ الطريقة

يقصد بالجانب الموضوعي هنا، ما كان من أمر الشيخ أو أقواله للمريد في ضرورة أن تكون طاعته لله ورسوله، خالصة بنية صادقة، وأن تكون موافقة لما أمر به الشرع الشريف ونهى. وأن يلتزم في ذلك بآداب النبي صلى الله عليه وسلم وما كان عليه حال الصحابة الكرام في ذلك، وألا يخرج عن هذه الآداب إلى نزعات نفسه أو خطرات قلبه، فيسلك بحسب ما يرغب، وما تتمنى نفسه من الشهوات.

وفي هذا الجانب نجد أقوالا كثيرة لمشايخ الطرق وعلماء التصوف في حض مريديهم وتلاميذهم على التزام الطاعة والعبادة لله ورسوله بحسب الشرع واقتداء به. نذكر من ذلك مثلا ما قاله أبو حامد الغزالي : (أيها الولد، اعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع – يعني الله ورسوله – في الأوامر والنواهي بالقول والفعل؛ يعني: كل ما تقول وتفعل وتترك قوله وفعله يكون باقتداء الشرع؛ كما لو صمت يومي العيد وأيام التشريق تكون عاصيا، أو صليت في ثوب مغصوب وإن كانت صورته عبادة تأثم. فينبغي أن يكون قولك وفعلك موافقا للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء ضلالة.) [69]

ويحلو لمشايخ الطرق الصوفية أن يؤكدوا في أول تنظيرهم عن آداب الطريق على أن أصل السمع والطاعة في الطريق هو التزام العمل بالقرآن والسنة طاعة لله ورسوله، وقد أورد أحمد زروق بعض أقوال للصوفية في هذا الشأن من ذلك ما قاله أبو القاسم الجنيد:

(الصراط المستقيم طريق محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وعلمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المعلمين المتأدبين، فإنه يفسد من يتبعه.) [70] وقول سهل بن عبد الله التستري: (بنيت أصولنا على ستة أشياء: كتاب الله وسنة رسوله، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق.) [71] وقال أبو القاسم النصراباذي (أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع.) [72]

والحقيقة أن هذا الجانب للسمع والطاعة عند شيخ الطريقة ينبني على إثبات أهمية وضرورية السمع والطاعة لله ورسوله، وفق قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [73] باعتبار أن طاعة الله ورسوله هي الطاعة المطلوبة في الدين، ولا تدين صحيح بغيرها أبدا، وأن طاعة أولى الأمر (وطاعة الشيخ) لا تستقل ولا تنفصل عن طاعة الله ورسوله. ومن ثم فإن عمل شيخ الطريقة في هذا الشأن هو حض المريد على طاعة الله ورسوله، وتوضيحه أن طاعته ليست مطلوبة في حد ذاتها، وإنما الطاعة من المريد ومن الشيخ أيضا يجب أن تكون لأوامر الله ورسوله.

ويكاد يخلو هذا الجانب من أيديولوجيا السمع والطاعة عند شيخ الطريقة، من حيث اعتماده على النصوص النقلية من الكتاب والسنة في الحض على السمع والطاعة لله ورسوله. ففي هذا الجانب يتوقف الشيخ عند حدود السمع والطاعة لله ورسوله، ولا يتعداها إلى ما ترغبه نفسه من المريد سمعا وطاعة، لمجرد أوامر الشيخ الذاتية، سواء أكانت هذه الأوامر تدينية أو كانت مطالب حياتية.

(ب) الجانب الذاتي في السمع والطاعة عند شيخ الطريقة: وفيه أمران:

الأمر الأول: تنظير شيوخ الطرق الصوفية في وجوب السمع والطاعة لهم:

يكثر تنظير مشايخ الصوفية في وجوب سمع وطاعة المريدين لهم، فلا يخلو مؤلف لدى الصوفية من قسم يتناول هذا الأمر بالتوضيح وإقامة الدليل عليه، سواء دليل من القرآن أو من السنة أو من سيرة وأقوال أوائل الطريق الصوفي. وقد يربط بعضهم هذا الأمر بالمحبة من المريد للشيخ، فضلا عن التعليم والتربية وآداب الطريق والسلوك الذي يجب أن يكون عليه المريد.

وهم يوجبون الطاعة على المريد من حيث هي دستور العلاقة بينه وبين شيخه. [74] ويستمدون وجوب هذه الطاعة من حيث أنهم نواب الشارع صلى الله عليه وآله وسلم ويأخذون عنه، ولهم حفظ القلوب من الميل إلى غير مرضات الله. [75] وإذا كان الشيخ في

عين المريد كدليل لسائر في صحراء لا نجاة له من هولها إلا بالسمع والطاعة، فإن الشيخ (الطبيب) المربي يجب عليه أن يلقن مريده معنى الطاعة؛ حتى تعتاد نفسه على القبول وعدم الاعتراض. ([76]) والقاعدة في ذلك أن كلام الشيوخ حجة على المريدين، سواء أكان مدونا أم شفويا. ([77])

وينتقل بعض علماء وشيوخ الطرق الصوفية من مجرد إيجاب الطاعة، إلى المغالاة في وجوبها، فيجعلونها طاعة مطلقة بأكثر مما هي لله ورسوله. فتجد لهم أقوالا في ذلك تخالف الاعتقاد الصحيح والتدين السليم. من ذلك مثلا قول ذي النون المصري (طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه) ([78]) وهو مبالغة في طاعة الشيخ أولا وطاعة الله ثانيا؛ لأن طاعة الله في نظره لا تصح إلا إذا وجّه الشيخ إليها التوجيه الصحيح. (79)

بل وصل الأمر في المغالاة ببعضهم أنه يقول بتقديم أمر الشيخ على أداء الصلاة في وقتها، حيث يقول أبو يزيد البسطامي: (إذا أمر الشيخ المريد أمرا من أمور الدنيا وبعثه في إصلاحه، فيقيم مؤذن في بعض طرقاته على مسجد من المساجد، فيقول: أدخل أولا المسجد وأصلي، ثم أكون ما وراء ما بعثني إليه، فقد وقع في بئر لا يتبين أسفلها، يعني ليس لها مقر.) [(80)]

ولا عجب أن يقول أحدهم: إن طاعة الشيخ مقدمة على طاعة الوالد. وأن خدمة أستاذك مقدمة على خدمة أبيك؛ لأن أباك كدرك وأستاذك صفاك، وأستاذك علاك، وأباك مزجك بالماء والطين، وأستاذك رقاك إلى أعلى عليين. [(81)] ويقول آخر: من لم ير خطأ شيخه أحسن من صوابه هو، لم ينتفع به. [(82)] ويقول آخر: إذا لم يترق المريد في طاعة ومحبة شيخه إلى حد يتلذذ بكلامه له كما يتلذذ بالجماع، فما أعطى الشيخ حقه. [(83)]

ويجعل شيوخ الطرق الصوفية عاقبة عدم طاعة المريد لشيخه أو اعتراضه عليه عاقبة وخيمة، تكتنفها المصاعب والمخازي والضلال، بل والموت أحيانا. من ذلك مثلا قولهم (من سلك بغير شيخ ضل وأضل، ومن حرم احترام الأشياخ ابتلاه الله بالمقت بين العباد، وحرم نور الإيمان.) [(84)] ومن لم يحفظ الأدب مع المشايخ، سلط الله الكلاب التي تؤذيه. وأن شابا لم يطع المشايخ ولم يتأدب معهم، سُرق وقطعت يده عقوبة على سوء أدبه معهم. [(85)] ومن ترك حرمة المشايخ، ابتلي بالدعاوى الكاذبة وافتضح بها. وقد تتبعنا أحوال القوم فما رأينا أحدا أنكر عليهم ومات بخير. [(86)]

الأمر الثاني: الأذكار والأوراد والأحزاب التي أوجبها الشيوخ على مريديهم:

تعتبر الأذكار والأوراد والأحزاب التي أوجبها شيوخ الطرق الصوفية على مريديهم ترديدا وحفظا، روح الطريق الصوفي. فإذا كانت السمع والطاعة تمثل الجامع أو الرابطة في العلاقة بين المريد وشيخه، فإن الأذكار والأوراد والأحزاب هي الروح التي تسري من الشيخ للمريد في كل آن ومكان في الطريق الصوفي. بل لا طريق صوفي بغيرها، ولا اجتماع إلا بها وعليها، قراءة وترديدا وحفظا من المريد، سواء أكان هذا الترديد في اجتماع الحضرة مع شيخ الطريقة، أو كان المريد وحيدا منفردا في حاله وشئونه.

وليست الأذكار والأوراد والأحزاب واحدة عند كل شيوخ الطرق الصوفية، بل لكل طريقة أذكارها وأورادها وأحزابها الخاصة. وهي تختلف من طريقة إلى أخرى في التسمية والمضمون، ولكنها تشترك في أن نشأتها جاءت من أيديولوجيا فكر الشيوخ وإبداعهم التنظيري التديني، وإن ادّعوا أنها إلهام من الله، أو تلقي من الرسول يقظة أو مناما، وتعتمد على ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من ذكر الله في الأوقات والحالات المختلفة للمسلم على مدار اليوم والليلة. ويظهر أنهم قد حققوا ما ((أثر عن الرسول أنه قال (سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء) ([87]) وقد فسر ابن الأثير ذلك بالخروج عن الوضع الشرعي والسنة المأثورة)) ([88])

والحقيقة أن شيوخ الطرق يخلطون في هذه الأوراد والأذكار والأحزاب بين بعض آيات القرآن، وبعض ما ورد من الدعاء النبوي، وما أتوا به من بنات أفكارهم وإبداعهم. وقد يوجد فيها طلاسم (كلمات أو حروف) لا تُفهم. وهم في كل ذلك يدّعون أنهم تلقوها عن شيوخهم، وكل شيخ تلقاها عن شيخه السابق، وهكذا حتى يصلون إلى (علي بن أبي طالب، عن رسول الله، عن الروح الأمين جبريل، عن رب العالمين.) ([89]) ويدّعون أن رسول الله والخلفاء الأربعة يحضرون مع أهل الطريقة وقت الذكر في الحضرة. ([90])

ولسنا في مقام يسمح بتفصيل الكلام عن ماهية الأذكار والأوراد والأحزاب وأقسامها وضرب أمثلة لكل نوع منها،([91]) فهي كثيرة بالمئات قد تصل مثلا إلى أكثر من خمسمائة حزب عند الطريقة العزمية،([92]) وقد تكون طويلة في صفحات متعددة،(93) لكن الذي يهمنا هنا هو التنظير الذي وضعه شيوخ الصوفية في الجزاء والثواب والفوائد التي سيحصل عليها المريد عندما يداوم على تلاوة الأذكار والأوراد والأحزاب كل يوم: فهو سيكون في أمن وأمان، ويجيب الله دعوته وتفرج كربته، وترفع منزلته وقدره، وينشرح صدره ويسهل أمره وييسر عسره، ويكفيه شر الإنس والجن، ويؤتيه السعادة في جميع حركاته وسكناته. [94] ويحلو لمريدي الطرق الصوفية أن يؤكدوا أن حاصل الأذكار والأوراد

والأحزاب قد تحقق في حياتهم، وأنه كانت لهم حاجات قضيت بعد المداومة على قراءة الحزب.

ويمكن القول إنه لا يعاب على الصوفية اشتغالهم بالذكر بما هو ذكر، إذ المؤمن مأمور بذكر الله، ولكن يعاب عليهم اشتغالهم بالذكر والورد والحزب (بصنيعهم، مما يخالف الأذكار الشرعية، التي يجب أن تستقى من القرآن الكريم أولا، وما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الأذكار النبوية، مما ينبغي أن تكون أذكارا للآخذين بسنته قولا وعملا) (95)

وهكذا يتضح لنا كيف أن أيديولوجيا السمع والطاعة عند شيخ الطريقة كانت عبئا على المريد من حيث تكبيله بإطلاق السمع والطاعة للشيخ، وتكليفه بما لم يكلفه الله ورسوله به من الذكر والعمل، فضلا عن وعده بتحقيق ما ليس في إمكان الشيخ وخارج عن قدراته بمجرد قراءة الأذكار والأوراد، مما حدى بالمريد في بعض الحالات بالتقاعس عن تنفيذ أوامر الله ورسوله والإسراع، والانقطاع لتنفيذ أوامر ورغبات وتكليفات شيخ الطريقة.

المبحث الخامس : أيديولوجيا السمع والطاعة عند أمير الجماعة:

يتحدد في هذا الجزء من البحث المقصود بالجماعة أي إحدى الجماعات الإسلامية المعاصرة، تلك التي نشأت أولها في بدايات القرن العشرين ثم الجماعات التي نشأت بعد ذلك، في مصر بصفة خاصة، وسيتم تناول أيديولوجيا السمع والطاعة عند بعضهم من خلال تنظير أمرائهم لهذا المبدأ المهم في التدين والواقع الإسلامي. ولسنا مشغولين في هذا الجزء من البحث بأسباب نشأة هذه الجماعات، ولا تصنيفها بالقياس إلى اعتدالها أو تطرفها، أو التماس تأصيل قديم لها في تاريخ الفكر الإسلامي.

ويمكننا القول إن الجماعات الإسلامية المعاصرة كلها قد تأسست على أن مبدأ السمع والطاعة أصل أصيل في تنظيرها وتفعيلها: أما في تنظيرها، فهم يرددون ويشرحون الآيات والأحاديث التي تحض على السمع والطاعة لله ورسوله ولأولى الأمر، وأيضا القول المنسوب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه (إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة) ([96]) ويقصدون من ذلك أن هذه الآيات والأحاديث وقول عمر بن الخطاب إنما ينطبق على جماعاتهم بل هي المقصودة به في هذا العصر. وأما تفعيلها فيتضح فيما ينتج من تنفيذ أوامر الأمراء على أرض الواقع، تلك الأوامر التي ظل المجتمع الإسلامي يعاني منها؛ بسبب صداميتها السياسية مع الدولة والمجتمع حتى وقتنا الحاضر.

وسوف نتناول في سبيل توضيح أيديولوجيا السمع والطاعة عند أمير الجماعة، أولا: مفهوم أمير الجماعة وعضو الجماعة. وثانيا: تأصيل السمع والطاعة عند أمير الجماعة. وثالثا: العهد والبيعة بين أمير وعضو الجماعة. ورابعا: جانبا أيديولوجيا السمع والطاعة عند أمير الجماعة. وذلك كما يلي:

أولا: مفهوم أمير الجماعة وعضو الجماعة

(أ) أمير الجماعة ومبررات إنشائه الجماعة

المقصود بالجماعة هنا أي الواحدة من الجماعات الإسلامية الحديثة والمعاصرة، التي نشأت في مصر بصفة خاصة على أساس الفاعلية التدينية الإصلاحية أو السياسية العملية. ولا يقتصر هذا البحث في تناول المفاهيم والتطبيقات في إطاره على جماعة معينة، بل إنه يتناول أيديولوجيا السمع والطاعة وتطبيقاته الواقعية بصفة عامة لدى المشترك بينها من التنظير والتفعيل في ذلك. صحيح أننا سنضرب بعض الأمثلة في بعض الموضوعات بجماعة معينة، لكن لن يتم الاقتصار عليها، وإن كانت تعد في رأينا دليلا على الفكر الأيديولوجي لدى الجماعات فيما يخص السمع والطاعة.

وأما المقصود بأمير الجماعة فهو المؤسس الأول لها، أو الأمير (أو رئيس أو مرشد الجماعة كما يحلو لبعض الجماعات تسميته) القائم على أمرها الحالي. ويحلو لمنظري الجماعات اعتبار قيام أمير الجماعة على شأن الجماعة كأنه قيام عام كما في الخلافة والإمامة العامة للمسلمين، بمعنى أن الأمير يقوم على شأن الجماعة ويكون مسئولا مسئولية كاملة عن كل ما يخصها في أمور التدين بل والمعيشة في الواقع. هذا على الرغم من وجود ما يسمونه مؤسسات شورى الجماعة: كمكتب الإرشاد أو مجلس الإدارة، فالحقيقة أن الأمير الذي يسير شئون الجماعة وأعضائها، هو مَن له السمع والطاعة مِن الجميع، ولا يناقشه أحد في أمره، ولا يرفضه أو يرده عليه.

وتختلف الدوافع الحقيقة لكل أمير جماعة في إنشاء جماعته: هل هي دوافع إسلامية صافية: من حيث نشر دعوة الإسلام وإصلاح أحوال أولئك المقصرين من المسلمين الذين انحرفوا جزئيا أو كليا عن منهج الإسلام القويم في القول والعمل، أم هي دوافع خارجية تمويلية من دول أو اتجاهات تريد نشر مذهبها وفكرها ومن ثم سياستها، أم هي دوافع الزعامة الشخصية الذاتية من حيث حب السيطرة والرئاسة على مجموعة من المسلمين بزعم أنهم جماعة المسلمين الذين يمثلون جمهور المسلمين ويفهمون الإسلام الفهم الصحيح؟ وهل صحيح أن الدافع السياسي لأجل الحكم ليس سببا في نشأتها؟

الواقع أن كل أمراء ورؤساء الجماعات الإسلامية المعاصرة يدّعون أنهم أنشأوا جماعاتهم من منطلق إسلامي خالص؛ لأجل خدمة الإسلام وإصلاح حال المسلمين العصاة أو المنحرفين عن المنهج الإسلامي القويم. لكن هذا الواقع قد اعتراه شك كبير من قبل بعض الباحثين الذين حاولوا استقصاء مبررات خارجية ليست من الإسلام في شيء. من ذلك مثلا ما فعله ثروت الخرباوي (اعتزل جماعة الإخوان المسلمين) حين طرح سؤالا مفاده: كيف فكر حسن البنا في إنشاء الجماعة ولماذا؟ ثم راح يتلمس أساسا ماسونيا في مراحل من هذه النشأة، وذلك فيما كتبه محمد الغزالي السقا في كتابه ملامح الحق من حيث (انتساب عدد من الماسون بينهم الأستاذ حسن الهضيبي نفسه لجماعة الإخوان المسلمين) ([97]) مما يفتح الباب للشك في النشأة الإسلامية الخالصة لهذه الجماعة أو على الأقل استمرارها كذلك. وبغير ذلك التأثر يمكن أن نجد في الجماعات الأخرى سواء أكانت ذات توجه سلفي سني: دعوي أو جهادي، أو توجه شيعي خارجي.

ورغم اختلاف الجماعات الإسلامية فيما بينها حول بداية الانطلاق أو منهج الدعوة أو تطبيقات المنهج في الحياة، فإنها تتفق جميعا على أساسية أو أصلية مبدأ السمع والطاعة، ولكن لكل منها أيديولوجيتها الخاصة في تفعيل هذا المبدأ وتطبيقه بشكل مطلق على جميع الأعضاء دون استثناء. والعجيب أن كل منها صارت تدّعي أنها جماعة المسلمين، وأن أميرها مؤسسها أو حتى أميرها الحالي هو إمام المسلمين. ومن ثم ادّعوا وجوب البيعة والطاعة لإمامهم. والحقيقة أنهم (جماعات من المسلمين وليس جماعة المسلمين؛ لأنه ليس للمسلمين اليوم جماعة ولا إمام. ومن ثم فالخارج من هذه الجماعات ليس بخارج من جماعة المسلمين؛ لأن هذه الجماعات ليس لها صفة ذلك، ولا لمؤسسها أهلية ادّعاء الإمامة) ([98])

ويمكن القول إن أول أمير مؤسس لأول جماعة إسلامية معاصرة في مصر هو محمود خطاب السبكي أحد علماء الأزهر الشريف. وقد أسس أول جماعة هي الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة. وكان تأسيس الجمعية الشرعية وعملها قد انطلق في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي، لكنها لم تسجل قانونيا إلا بعد ذلك بنحو عشرين سنة أي في عام 1913م عندما صدر قانون ينظم تأسيس وإدارة الجمعيات. ([99]) ثم بعد ذلك جاء أمراء وأسسوا جماعات كثيرة مثل جماعة: أنصار السنة المحمدية، التبليغ والدعوة، الإخوان المسلمون، شباب محمد، الجهاد الإسلامي، التكفير والهجرة، الجماعة

الإسلامية، القطبيون، السماويين، السلفية، حزب الله، حزب التحرير، الشوقيون، التوقف والتبين، حزب التحرير. ([100])

ويبالغ منظرو كل جماعة في وصف أميرها ومؤسسها بكل صفات الكمال البشري، وادّعاء أن الله اختاره لهذه المهمة الجليلة أي تأسيس الجماعة، من ذلك مثلا القول عن مؤسس الإخوان المسلمين وأميرها أو مرشدها الأول: (إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين، في مجموع الصفات التي تحلى بها، وخفقت أعلامها على رأسه الشريف. إنه كان لله بكليته: بروحه وجسده، بقلبه وقالبه، بتصرفاته وتقلبه. كان لله، فكان لله له، واجتباه وجعله من سادات الشهداء الأبرار.) ([101]) وأغلب الظن أن منظري كل جماعة يتحدثون عن مؤسسها وأميرها بمثل تلك المبالغة، وخاصة ما يتعلق بالصفات الحميدة، والاختيار الإلهي لأميرهم لتأسيس وقيادة الجماعة، وهو متهافت بذاته.

(ب) عضو الجماعة الإسلامية ودوافع انضمامه لها

عضو الجماعة الإسلامية هو اللبنة الأولى في بناء الجماعة، بل هو حجر الأساس الذي يقوم عليه بناء الجماعة، وهو الضلع الثاني في الأهمية بعد أمير الجماعة، الذي لا قيام للجماعة إلا به. وهو المستهدف دائما باعتباره جديدا، ثم بعد ذلك بحسب ترقيه أو تغير حاله في سلم تنظيم الجماعة من مجرد عضو منتسب، ثم إلى وصفه بحسب مرتبته المنتظمة في الجماعة، إلى أن يصل لأعلى التنظيم المؤسسي للجماعة، سواء أكان في مجلس إدارة أو مكتب إرشاد، أو حتى أمير للجماعة أو مرشد لها.

ومهما ادّعى منظرو كل جماعة أن الأعضاء فيها متساوون، لا فرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح، فالحقيقة أن واقع كل جماعة هو واقع هرمي تسلطي من الأعلى على الأدنى، وفق مبدأ السمع والطاعة تشبها بأمير الجماعة. وأن العضو الجديد لا بد أن يتعهده من هو مسئول عنه، بحسب نظام كل جماعة في ذلك. وأن نظام الأقدمية في الانضمام هو الفيصل في الترقي.

وأول وأهم شروط العضوية الصحيحة في كل جماعة هو عدم ازدواجية الولاء عند العضو؛ فلا يطيع قيادة جماعته تارة، ثم يطيع قيادة جماعة غيرها تارة أخرى. وقد توجد شروط أخرى لدى بعض الجماعات مثل: (أن لا يقل عمره عن ثمانية عشر عاما، وأن يكون حسن السير والسلوك، وأن يكون فاهما فكرة الجماعة، وأن يفرض على نفسه اشتراكا شهريا يدفعه بانتظام، وأن يتعهد بالعمل بقانون الجماعة، ويبايع بيعتهم.) ([102])

ويحاول دعاة ومنظرو كل جماعة إسلامية بكل جهد تنظيري وعملي تجنيد وضم أكبر عدد من الأعضاء الجدد لجماعاتهم. وهم في سبيل التنظير لذلك يحاولون إيهام أو إقناع من يريدون ضمهم أو تجنيدهم بأن الارتباط بجماعة منظمة في عصرنا أمر لا مندوحة عنه للمسلم شرعا؛ لأن أهداف الإسلام لا تتحقق إلا بهذا الانتساب، وأن أول صفات المسلمين أنهم يوالون بعضهم بعضا، وأنه لابد للمسلم أن يعطى طاعته لجهة وهي الجماعة، وأن الانتماء لا يتحقق إلا داخل الجماعة، وأن كمال الصفة الإسلامية لا يكون إلا في داخل الجماعة، فضلا عن أمر النبي بلزوم جماعة المسلمين. ([103])

والحقيقة أن هناك دوافع متعددة لانضمام العضو الجديد إلى أية جماعة إسلامية: منها ما هي تأثرية عائلية، بفعل سابقية أحد العائلة في الجماعة، أو حماسية تدينية بحسب طبيعة الشباب في التحمس للتدين والدفاع عن الدين، أو حالة وجدانية بحسب ما يمر به الشباب خاصة من ظروف علاقة الحب أو الكره، أو وجاهة مجتمعية بحسب ما يجده العضو من مكانة اجتماعية، أو حالة اقتصادية بحسب أن الجماعات ترعى أعضائها ولا تتخلى عنهم في ظروفهم الاقتصادية السيئة. وقد لا يجد أحدهم تفسيرا لسبب انضمامه لجماعة ما إلا بقوله: (تحكي أسطورتي أنه ذات يوم منذ زمن بعيد تسربت روحي فدخلت جماعة الإخوان.) ([104]) ويظل العمل على تجنيد أعضاء جدد، من أجلّ وأهم الأعمال التي يؤديها الأعضاء القدامى أو المكلفون بذلك في كل جماعة.

ثانيا: العهد والبيعة بين أمير الجماعة وعضو الجماعة

يمثل العهد أو البيعة بين عضو الجماعة الجديد وأمير الجماعة، الضلع الثالث، بعد الأمير والعضو. وهو ضلع معنوي التزامي، يقطعه العضو على نفسه، ويحلف بأغلظ الأيمان، بحسب ما يمليه عليه الأمير أو نائبه من الصيغة التي ارتضاها أو أقرتها الجماعة. وهذا أمر لا غنى عنه أبدا لكي يصير العضو الجديد منتسبا أو منضما إلى الجماعة، فردا عاملا فيها. ثم هو يترقى فيها بحسب نظامها وآلياتها من عضو منتسب إلى عضو عامل (في أسرة جماعاتية مثلا) إلى رئيس أسرة أو نقيب شعبة ورئيس منطقة ثم يتم ترشيحه إلى مجلس إدارة الجماعة أو مكتب إرشادها بحسب نظام كل جماعة. والحقيقة أن بعض الجماعات الإسلامية ليس فيها مثل هذا التدرج أو هيئة شورية. وإنما ليس فيها إلا ثم الأمير، الذي يمثل كل شورى وكل قرار.

وليست صيغة العهد والبيعة العامة واحدة لدى كل الجماعات الإسلامية، وإنما تختلف بحسب ما ارتآه أمير كل جماعة، وما اتفقت عليه كل جماعة من صيغة. ولكنها تتفق

جميعا في احتوائها على القَسَم بالتزام السمع والطاعة لأمير الجماعة، أو طاعة الجماعة والتزام مبادئها بحسب مؤسساتها. وقد تشتمل بعض الصيغ على القسم بالتزام طاعة الله ورسوله. ما يعني ذلك أن العضو المبايع يعاهد الله على أن يتمسك بالجماعة ويجاهد في سبيلها، ويقوم بشرائط عضويتها، وأن يثق في قيادتها، وأن يسمع ويطيع لها، من غير تردد أو مراجعة أو شك أو حرج، وفي المنشط والمكره. ويقسم على ذلك ويبايع عليه، ويشهد الله ويجعله وكيلا على بيعته لأمير الجماعة. ([105])

ويوجد لدى بعض الجماعات الإسلامية بيعة خاصة لما يسمونه بالتنظيم الخاص المنوط بالمهام الإرهابية القتالية والاغتيالات. وهذه البيعة يشوبها طقوس سرية في حجرة مظلمة، من بينها البيعة على المصحف والمسدس، والقبول بما يسمونه بالجيش الإسلامي، والتعهد بالسمع والطاعة المطلقة التامة، وعدم الخيانة وإفشاء السر، وإلا فمأواه جهنم وبئس المصير. ([106])

ثالثا: جانبا أيديولوجيا السمع والطاعة عند أمير الجماعة

(أ) الجانب الموضوعي في السمع والطاعة عند أمير الجماعة

يقصد بالجانب الموضوعي ما كان من كلام أمير الجماعة بضرورة أن تكون طاعة عضو الجماعة لله ورسوله خالصة بنية صادقة، وأن تكون موافقة لما أمر به الشرع الشريف ونهى. وأن يلتزم في ذلك بآداب النبي صلى الله عليه وسلم وما كان عليه حال الصحابة الكرام في ذلك، وألا يخرج عن هذه الآداب إلى نزعات نفسه أو خطرات قلبه، فيسلك بحسب ما يرغب.

ويحلو لأمراء الجماعات الإسلامية أن يؤكدوا في أول تنظيرهم عن آداب الجماعة على أن أصل السمع والطاعة هو التزام العمل بالقرآن والسنة طاعة لله ورسوله. والحقيقة أن هذا الجانب للسمع والطاعة ينبني على إثبات أهمية وضرورية السمع والطاعة لله ورسوله، وفق قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)، باعتبار أن طاعة الله ورسوله هي الطاعة المطلوبة في الدين، ولا تدين صحيح بغيرها أبدا، وأن طاعة أولى الأمر لا تستقل ولا تنفصل عن طاعة الله ورسوله، ومن ثم

فإن عمل أمير الجماعة في هذا الشأن هو حض عضو الجماعة على طاعة الله ورسوله، وتوضيحه أن طاعته لشخصه ليست مطلوبة في حد ذاتها.

ويكاد يخلو هذا الجانب من أيديولوجيا السمع والطاعة عند أمير الجماعة، من حيث اعتماده على النصوص النقلية من الكتاب والسنة في الحض على السمع والطاعة لله ورسوله. ففي هذا الجانب يتوقف أمير الجماعة عند حدود السمع والطاعة لله ورسوله، ولا يتعداها إلى ما ترغبه نفسه من السمع والطاعة، لمجرد أوامره الذاتية، سواء أكانت تدينية أو كانت حياتية.

(ب) الجانب الذاتي في السمع والطاعة عند أمير الجماعة

لقد زرع أمراء الجماعات الإسلامية الطاعة الذاتية لهم في نفوس أتباعهم بكل طريق أيديولوجي وبكل الوسائل: الاقناعية تارة والترهيبية تارة أخرى. حتى صار هؤلاء الأتباع لا يفرقون في العمل بين الطاعة لأوامر الله ورسوله، والطاعة لمجرد أوامر الأمير، بغض النظر عن اتفاقها مع أوامر الله ورسوله أو مدى صوابها أو خطئها، إنما يكفي إعلان الطاعة المطلقة لشخص الأمير تشبها بطاعة الصحابة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. مع أن الفرق ظاهر واضح في الشرع بين طاعة الله ورسوله وطاعة الأمير.

وليس عجيبا أن يرحب أمراء الجماعات بمن يتطرف ويبالغ في إظهار السمع والطاعة لهم، ويشبههم في ذلك بما كان يفعله الصحابة مع النبي. من ذلك مثلا ما قاله محمد الجندي جمعة عضو مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين في مؤتمر طلبة الإخوان سنة 1357هـ لمرشد الجماعة الأول حسن البنا: (ارمِ بنا حيث شئت، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك.) [107] ولم يعقب المرشد على قوله هذا أو يرفضه، بل أعجب به. ومن ثم وافق عليه كل الحضور وصاروا يقولونه بلسان حالهم.

وسوف نتناول هذا الجانب الذاتي من السمع والطاعة في النقاط الآتية:

1- التفرقة بين الطاعة في الأمن والطاعة في الاستعداء: يحاول أمراء الجماعات الإسلامية التأكيد دائما على أن طاعة أتباعهم لهم ليست مطلقة، وإنما هي في المعروف ومقيدة بغير معصية. وهم في إثبات ذلك يستشهدون بأدلة من الكتاب والسنة. وبتعبير بعضهم (إن الحكم الصادر إلى رعيتهم واجب الطاعة، إذا كان مطابقا للقانون الشرعي، ولا طاعة لهم فيما يخالف هذا القانون.) ([108])

لكن الحقيقة أن أمراء الجماعات يفرقون بين نوعين من السمع والطاعة: السمع والطاعة في حال أمن الجماعة، واطمئنانها على حالها، وعدم تعدي الدولة أو حتى غيرها

من الجماعات عليها. وبين السمع والطاعة في حال استعداء الجماعة من غيرها أو تعدي غيرها عليها، أو في حال حربها مع غيرها. فالسمع والطاعة في الحالة الأولى مقيدة بألا تكون في معصية: كأن يكون الأمر بالصلاة أو قراءة القرآن والأذكار وغيرها من صور البر والتقوى. وبناء على ذلك هم يقولون إن الطاعة مقيدة بالكتاب والسنة، وليس فيها أمر بطاعة معصية. ومن ثم فهم يوجبون على كل عضو أن يعتقد أن ما تفعله الجماعة في ذلك هو صواب مطلق ولا يفارق الشرع قيد أنملة.

أما النوع الثاني من السمع والطاعة فهو الذي يكون في حالة عداء الجماعة مع غيرها أو استعدائها للدولة. أو في حالة الحرب البينية الجماعاتية: سواء أكانت حربا صريحة بأسلحتها وأدواتها، أو كانت حربا باردة كلامية بنقض الأسس والأفكار. وفي هذه الحرب وبموجب السمع والطاعة فيها يقوم العضو المكلف في الجماعة بتنفيذ أوامر أميره أو من كلفه دون نقاش أو حوار أو شك أو حرج. وإذا امتنع عن ذلك يكون قد نكث في بيعته ويُحكم عليه بالقتل ردة، ولا يقتص ممن قتلة، ولا دية له عندهم.

2- الإعجاب بنموذج السمع والطاعة عند فرقة الحشاشين: وهذا من الأمور الوجدانية العجيبة لدى كثير من أمراء الجماعات الإسلامية، أنهم يعجبون في ذاتهم بنموذج السمع والطاعة عند أعضاء فرقة الحشاشين لأميرهم حسن بن الصباح. ولا يتوقف الأمر هنا عند أمراء الجماعات على مجرد الإعجاب الذاتي الوجداني بذلك، بل إنهم يتمنون أن يكون أعضاء جماعاتهم في السمع والطاعة بمثل أعضاء جماعة الحشاشين، وخاصة الفدائيين الذين يغتالون أعداءهم من المسلمين وغير المسلمين. ونحن نعلم مدى إجرام فرقة الحشاشين في التاريخ الإسلامي، وكيف كانوا يثيرون الرعب والفزع في نفوس المخالفين؛ بسبب الطاعة العمياء التي كان عليها أعضاء هذه الجماعة من الإرهاب والقتل بأمر أميرهم الدموي الإرهابي.

ولقد عمق السمع والطاعة العمياء في نفوس أتباع أمير جماعة الحشاشين درجة الإغلاق التام؛ ما يجعل أحدهم إذا أمره الأمير أن يقتل نفسه بالسيف لا يتردد لحظة، أو يلقي نفسه من أعلى الجبل فإنه يفعل فورا، أو يقيم بين جند الأمير المخالف ثم يقتل جهارا ولا يهرب. بل إن حالهم أثر في أمهاتهم؛ فصرن يفرحن إذا نفذوا أمر الأمير كما يقوله لهم تماما. وكل ذلك بسبب أن أميرهم كان يقول للشاب منهم: (اذهب واقتل فلانا، وعندما تعود سوف أدخلك إلى الفردوس وإذا مت أرسل ملائكتي لتحملك إلى هناك.) ([109]) وإن وعد

الأمير بالجنة والحور العين فيها يفعل فعل السحر في نفوس الأتباع قديما، كما يفعل هذا الوعد بالجنة والحور العين في نفوس شباب الجماعات الإسلامية المعاصرة.

هذا هو النموذج الذي درسه أمراء الجماعات الإسلامية بإمعان وإعجاب في إطلاق السمع والطاعة للقائد والأمير. ولقد استغلوه بكل الصور والحالات في محاربة الخصوم السياسيين، كما استغله أيضا من ورثوا قيادة الجماعات بعد مؤسسها الأول، وخاصة في إنهاك الدولة المصرية وإرهابها شعبا وحكومة، ومن ثم تبرير الجرائم الإرهابية والقتل والتدمير والحرق لمؤسسات الدولة ومقدراتها؛ لأجل الوصول لحكمهم المزعوم إسلاميا.

3- تغليف طاعة الجماعة بالشورى لتبرير طاعة الأمير: لقد برع أمراء الجماعات ومنظروها في هذا الأمر براعة منقطعة النظير، فقد صوروا لأتباعهم أنه لا طاعة لفرد واحد، وإنما الطاعة للجماعة بالاعتبار المؤسسي المبني على الشورى التي أقرها الإسلام. وهم يقرون بأن الطاعة في الجماعة أهم مظهر من مظاهر العمل المؤسسي والجماعي. وما دام الأمر مرتبطا بالشورى وآليات اتخاذ القرار بشكل صحيح، فلا غضاضة.

ويحلو لأمراء ومنظري الجماعات الإسلامية ادّعاء فرض الطاعة للجماعة ووجوبها على أعضاء الجماعة بالاعتماد على أحاديث النبي التي أمر فيها بالسمع والطاعة. ويرون أن هذه الأحاديث وإن كانت تبدو في ظاهرها أنها تحض على السمع والطاعة لولي الأمر فقط بالاعتبار الذاتي الشخصي، فإن ولي الأمر لا يجب أن يتخذ قرارا إلا بعد الرجوع إلى الهيئة الاستشارية (أهل الحل والعقد أو مجلس الإدارة أو مكتب الإرشاد أو المكتب التنفيذي أو غيرها من المسميات لدى الجماعات) بالاعتبار التخصصي العلمي والديني، ويجب على الجميع السمع والطاعة لما يصدر من قرارات وأوامر بهذا الاعتبار المؤسسي، وليس باعتبار أنها قرارات أمير الجماعة.

والحقيقة أنه مهما حاول منظرو الجماعات في تغليف مبدأ السمع والطاعة بأنه طاعة للجماعة بالاعتبار المؤسسي بالشورى وليس بالاستبداد الشخصي، فإن طاعة الأمير أو من ينوب عنه تبقى في أذهانهم مقدسة لا يحيدون عنها ولا يتجاوزونها، بل قد يصل الأمر عندهم كما هو عند الصوفية (كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي مغسله)، إذ قال أحد من خالط أحدى هذه الجماعات ثم اعتزلها: (كانت الجماعة موطئا لأناس أحدهم ميت، والآخر كالمغسل يقلبه كيف يشاء، ولا يكون هذا إلا عندما تنعدم إرادة من وصفته بالميت وما هو ميت، ولكنه ليس حيا، بل هو واحد من الذين قبلوا أن يعيشوا كالأموات، يعبث بعقولهم من يريد.) ([110])

ثم يغلو منظرو الجماعات في تصوير طاعة الأمير فيدخلوها في باب الإيمان، من حيث القول: (إن الإيمان بالقائد جزء من الإيمان بالدعوة؛ ذلك لأن المظهر العملي للطاعة والأسوة هو في اتباع القائد اتباعا مطلقا) ([111]) بل إن أحد الأعضاء من إفكه قال: (إن المرشد لا يخطئ) ([112]) صحيح أن هذا القول لم يجد تأييدا من الأغلبية في الظاهر، لكن بلسان الطاعة في الباطن يقرون بتنزيه المرشد عن أن يكون مثلهم في الخطأ.

4- خطورة الطاعة العمياء في التنظيمات الخاصة والأذرع المسلحة: الحقيقة أن استقراء واقع الجماعات الإسلامية وقراءة مؤلفاتهم يجد أنهم أسسوا جميعا بشكل أو بآخر ما يسمى بالتنظيمات الخاصة والأذرع المسلحة، وإن لم يكونوا جميعا على قدر المساواة في ذلك. وقد استلهموا في ذلك نموذج فرق الفدائيين أو فرق الموت في التاريخ القديم. وقد ابتلينا في عصرنا الحاضر بتنظيمات تسمي نفسها تسميات تبدو أنها في صالح البلد وهي في الحقيقة أضر ما تكون على البلاد والعباد مثل: حركة ساعد مصر (حسم) الإرهابية.

ويقع أمراء الجماعات الإسلامية في تناقض شديد إزاء هذه التنظيمات الخاصة، فبينما هم يفتخرون بها فيما بينهم لدرجة أن يقول أحدهم (نحن نتعبد لله بأعمال النظام الخاص للإخوان المسلمين قبل الثورة)، ([113]) لكن عندما ينكشف أمرهم بعد جرائمهم الإرهابية في القتل والتفجير يعلنون البراءة منهم لدرجة أن يقول عنهم مرشدهم (إنهم ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين)([114]) إنهم يستعملونهم ثم يتخلون عنهم بعد انكشاف أمرهم.

والحقيقة أن هذه التنظيمات الخاصة كانت بيعتهم خاصة وطاعتهم خاصة، ([115]) على درجة عالية جدا من الالتزام والإطلاق التام، بل كانت طاعة عمياء فعلا، على درجة كبيرة من الخطورة، من حيث أنهم يعتبرون أنفسهم مجاهدين يباح لهم ما لا يباح للآخرين. فارتكبوا القتل والتفجير والإرهاب بسبب طاعتهم العمياء لقيادات لا فقه لهم ولا وعي. والحق أنه كان هؤلاء ضحية اصطدام أمرائهم بالسلطة الحاكمة. ([116])

5- تبرير طاعة الأمير في المعصية بالضرورة: هذه القضية من أخطر إن لم تكن أخطر قضايا التنظير في أيديولوجيا السمع والطاعة لدى الجماعات الإسلامية. وهي تندرج تحت ما يمكن تسميته بمحاولات تعصيم أتباع كل جماعة أميرها من الوقوع في الخطأ الذي يخالف ما أمر به. فهم يدّعون أن أمر الأمير بالسمع والطاعة متسق مع أمر الله ورسوله، وهم يثقون فيه ثقة تامة، فلا يعقل أن يأمر الأمير بأمر يكون فيه مخالفة لله ورسوله، وحتى لو فهموا منه نوع من المخالفة في الظاهر فلابد من طاعته؛ لأنه هو أعلم منهم بالضرورة التي دفعته لما قد يكون في ظاهره مخالفة أو معصية.

والحقيقة أن الفيصل في تحديد الطاعة والمعصية ليس الأمير بسلطانه، ولكنه النص من الله أو الرسول. فقد قال الله تعالى (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا) (117) وقال أيضا (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله، ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب) (118) ومعلوم في الإسلام أن طاعة الأمير ليست مطلقة كطاعة الله ورسوله، ولكنها مقيدة ومشروطة بأن يكون أمر الأمير وفق قول النبي (إنما الطاعة في المعروف) وقوله أيضا (على المسلم السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة). أي إذا أمر أمير بمعصية لله ورسوله، فلا سمع ولا طاعة.

ونضرب هنا مثالا بما في تنظير جماعة التكفير والهجرة من تبرير طاعة الأمير في المعصية للضرورة حيث قالوا : (إنا نطيع الأمير في المعروف، ونطيعه كذلك في معصية الله حال الضرورة، فللأمير الحق أن يطاع في المعصية حين الضرورة، وبما أن الضرورة يقدرها الأمير إذن فقد وجبت طاعته في طاعة الله وفي معصية الله على السواء. وإننا يجب أن نثق في تقدير الأمير فنوافقه على ما يرى؛ لأنه يعلم ما لا تعلمه الرعية من ظروف الواقع المحيط بالجماعة، ولذا يجب أن يسلموا له القياد أينما قادهم انقادوا، دون سؤال عن العلة أو استفسار عن الأسباب.) ([119])

وفي التطبيق العملي لهذه القاعدة الخطيرة عند جماعة التكفير والهجرة نجد أن أمير هذه الجماعة قال لأحد أتباعه: (ممكن آمرك بقتل نفسك من غير بيان العلة، وليس لك إلا أن تسمع وتطيع) ([120]) وعندما حاول رجب مدكور – كان أحد المقربين من أمير الجماعة – أن يفهم حديثا نبويا بفهم مختلف عن فهم هذا الأمير قال له باللهجة العامية (أكفّرك على طول)، يعني أحكم عليك بالكفر، وأطبق عليك حد الردة بالقتل. ([121])

خامسا : خاتمة البحث. وتشتمل هذه الخاتمة على أمرين:

(أ) أهم نتائج البحث

1– في مفهوم الأيديولوجيا الدينية لابد من التفرقة الحاسمة بين الدين والفكر الديني.

2– لابد من تأصيل السمع والطاعة من القرآن والسنة وليس من فكر أمراء الجماعات.

3– يُضيّع التماهي العقدي في السمع والطاعة للشيخ والأمير شخصية المريد والتابع.

4– لا تدين لمريد صوفي بحق إلا أن تكون طاعته لشيخه واعية عقلية اقتناعيه.

5– إن اعتزال الجماعات الإسلامية أفضل بكثير من سمع وطاعة عمياء فيها لأمرائها.

(ب) أهم التوصيات

1- إجراء دراسة أو إحصائية تعمل على بيان جرائم ومآسي الجماعات الإسلامية المتطرفة الجهادية وحتى الدعوية من منظور تفعيل مبدأ السمع والطاعة في الواقع.

2- التوسع في عرض الفكر النقدي لآراء الجماعات الإسلامية والطرق الصوفية؛ حتى يستفيد منه الشباب في مقاومة الأفكار التسلطية على عقول وقلوب الشباب.

3- إتاحة الفرصة الإعلامية في وسائل الإعلام لعرض التجارب التي قام بها المفكرون الإسلاميون في نقد تأثير أمراء الجماعات الإسلامية على الشباب المتحمس للدين.

4- تشجيع شباب الباحثين في مرحلتي الماجستير والدكتوراه على دراسة التجارب الواقعية في الفكر الصوفي والجماعاتي بوجهة نظر نقدية؛ لبيان أهميتها في التدين.

5- التوسع في نشر نتائج الندوات والمؤتمرات التي تناقش فكر الجماعات الإسلامية المتطرف وفكر الطرق الصوفية المتسلط على الشباب وبيان مساوئه وخطورته

سادسا : هوامش المصادر والمراجع

(1) مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية (القومي للترجمة، ط1، 2012م) ص 14.

(2)Destutt de Tracy's :Elements of Ideology, Volume 1 Ideology

(3)https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/ideology

(4) أندرو هيود: مدخل إلى الايديولوجيات السياسية ص 20

(5) د. عبد الله العروي : مفهوم الأيديولوجيا (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط5، 1993) ص 9 (6) السابق : ص 9 (7) السابق : ص 10 (8) السابق ص 12

(9) الأيديولوجيا الانقلابية (بيروت: المؤسسة الأهلية، 1964م) ص54

(10) طريق الاستقلال الفلسفي (بيروت: دار الطليعة، 1970) ص 52-53

(11) محاضرات في الأيديولوجيا (الاسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية 1985) ص ج

(12) جمال أبو الحسن: الأيديولوجية الإسلامية https://24.ae/article/312198

(13) محاضرات في الأيديولوجيا ، ص: د

(14) المرجع السابق ص هـ . و راجع أيضا د. عبد الرحمن خليفة ود. فضل الله إسماعيل : في الأيديولوجيا والحضارة والعولمة (كفر الدوار: بستان المعرفة ، 2001) ص 43.

(15) انظر : محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (القاهرة: دار الحديث، د. ت.) ص 358 – 360

(16) سورة الأنعام من الآية 36

(17) سورة الأعراف الآية 204

(18) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس، مرجع سابق ص 429-431

(19) سورة النساء آية 81

(20) سورة النساء آية 59

(21) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس، مرجع سابق ص 359، 429

(22) سورة النور آية 51

(23) سورة البقرة آية 285

(24) انظر صحيح البخاري، رقم 2599، 7142 وصحيح مسلم رقم 1839

(25) تفسير الطبري (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ط1،1994م) ج 2 ص 492، 493

(26) المفردات في غريب القرآن (القاهرة : دار التحرير، 1991م) ج 1 ص 25

(27) فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب (بيروت: دار الفكر، 1981م) ج 10 ص 147

(28) أخرجه البخاري برقم 7202 (29) أخرجه أبو داود برقم 4607

(30) أخرجه البخاري برقم 2955

(31) أخرجه البخاري برقم 4340

(32) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج 8 ص 59

(33) انظر: ابن منظور: لسان العرب (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1981م) مجلد 6 ج 46 ص 4303. والفيروزآبادي: القاموس المحيط (القاهرة : دار الحديث، 2008م) ص 1565. والمعجم الوسيط ج2 ص 892

(34) د. مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، الطبعة التاسعة، 2005م) ص 241 (35) المرجع السابق ص 126 – 136

(36) مقدمة ابن خلدون، (القاهرة: دار نهضة مصر، ط 3، 1981م) ج2 ص 510

(37) د. حسن الشرقاوي: ألفاظ الصوفية ومعانيها (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1983م) ص 291

(38) محمد ماضي أبو العزائم: مذكرة المرشدين والمسترشدين (القاهرة : دار المدينة المنورة 1982م) ص 49

(39) د. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، نشأتها ونظمها وروادها (القاهرة : دار المعارف، 1983 م) ص 35

(40) أبو بكر محمد بن اسحق الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، نشره وصححه أرثر جون أربري (القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1994م) ص 107

(41) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري: الرسالة القشيرية (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م) ص 424 . وعبد الرحمن عبد الخالق: الفكر الصوفي ص 490

(42) راجع: أبو طالب المكي محمد بن عطية: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق د. محود إبراهيم الرضواني (القاهرة: مكتبة التراث، الطبعة الأولى، 2001م) ج 1 ص 273

(43) أبو طالب المكي: قوت القلوب ج1ص273 (44) إحياء علوم الدين ج3 ص65

(45) راجع : القشيري: الرسالة القشيرية ص 426، الشعراني : الأنوار القدسية ص 174، السراج الطوسي : اللمع ص 376

(46) إحياء علوم الدين ج 3 ص 65

(47) الأنوار القدسية ج 1 ص 189

(48) شطحات الصوفية ص 182

(49) الأنوار القدسية ج 1 ص 188

(50) عبد الوهاب الشعراني : الأنوار القدسية ج 1 ص 185 – 186

(51) محمد بن جميل زينو: الصوفية في ميزان الكتاب والسنة (جدة: دار المحمدي للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 2000م) ص 28

(52) سورة الجن آية 16

(53) سورة طه آية 104

(54) عبد الله بن علوي العطاس: ظهور الحقائق في بيان الطرائق (مطبعة بكراز حسني، 1312هـ) ص 17

(55) السابق ص 18

(56) د. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر ص 19، 20

(57) أبو حفص عمر بن محمد الملقب بشهاب الدين السهروردي: عوارف المعارف (القاهرة: المكتبة العلائية، 1939م) ص 70 (58) انظر : الرسالة القشيرية ص 90

(59) راجع : أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ج 1 ص 92 – 95 ، ج 5 ص 203– 206 وأيضا د. عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر ص 24 – 25

(60) د. عمار علي حسن: الصوفية والسياسة في مصر (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب ومكتبة الأسرة، 2007م) ص 61

(61) السابق ص 61، 62

(62) راجع: د. حسن الشرقاوي: الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، (القاهرة: دار المعارف، 1982م) ص 44

(63) الحديث أخرجه البخاري، انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج 1 ص 71

(64) أحمد زروق: عُدة المريد الصادق، تحقيق الصادق الغرياني (بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2006م) ص 133

(65) سورة الفتح آية 10

(66) راجع : أحمد زروق: عُدة المريد الصادق ص 35، 36 وقواعد التصوف وشواهد التعرف ص 241، 242.

(67) د. عمار علي حسن : الصوفية والسياسة ص 63

(68) انظر : أحمد زروق: عُدة المريد الصادق ص 129 – 132

(69) أيها الولد (بيروت: دار المنهاج، ط.2، 2014م) ص 50 – 51

(70) عدة المريد الصادق ص 36 (71) السابق ص 36 (72) السابق ص 37

(73) سورة النساء آية 81

(74) د. حسن الشرقاوي: الكوكب الشاهق ص 52

(75) راجع: عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية ج 1 ص 173

(76) د. حسن الشرقاوي: نحو علم نفس إسلامي (شباب الجامعة، 1984م) ص 246

(77) راجع: أحمد زروق الفاسي: قواعد التصوف وشواهد التعرف ص 83

(78) انظر : فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء ج 1 ص 171

(79) د. أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام (القاهرة: دار المعارف، 1963م) ص 268

(80) عبد الوهاب الشعراني : الأنوار القدسية ج 1 ص 189

(81) راجع : عبد الوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى، تحقيق د. أحمد عبد الرحيم السايح (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 2005م) ج 1 ص 169

(82) عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية ج 1ص176

(83) السابق ج1 ص 173 (84) السابق ج1ص 174

(85) السابق ج1 ص 175

(86) انظر: عبد القادر عيسى : حقائق عن التصوف ص 86

(87) حديث حسَن ، حسّن إسنادة ابن كثير في تفسيره ج 3 ص 425

(88) زكي مبارك : التصوف الإسلامي (لندن: مؤسسة هنداوي،2012م) ص 422

(89) نوح كلر: مقدمة أوراد الطريقة الشاذلية (القاهرة: دار الزاهد، 1997م) ص6 ،7

(90) انظر: عمر بن سعد الفوتي التيجاني: رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2019م) 521

(91) راجع: د. حسن الشرقاوي: ألفاظ الصوفية ومعانيها ص 164، 314

(92) انظر موقع الطريقة العزمية : www.islamwattan.com/news/Details

(93) أوراد الطريقة الشاذلية من ص 14 – 18 (94) المرجع السابق ص 18 – 18

(95) د. أحمد محمود الجزار: الإمام المجدد ابن باديس والتصوف (الإسكندرية: منشأة المعارف، الطبعة الأولى، 1999م) ص 99

(96) مسند الدارمي، تحقيق حسين سليم الداراني (الرياض: دار المغني، الطبعة الأولى، 2000م) ج 1 ص 79

(97) راجع : سر المعبد، الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين (القاهرة: دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، 2012م) ص 28

(98) أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي: الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة (الطبعة الشرعية الثالثة، 1997م) ص 384، 385

(99) عبد المنعم منيب: دليل الحركات الإسلامية المصرية (القاهرة: مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، 2010م) ص 12

(100) المرجع السابق ص 47

(101) انظر: سعيد حوى: المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين (القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، 2006م) ص 189

(102) راجع حسين جابر: الطريق إلى جماعة المسلمين ص327 و358–362

(103) راجع: سعيد حوى : المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص 171 – 173

(104) ثروت الخرباوي: سر المعبد الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين ص 15

(105) راجع : الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة ص 171

(106) عبد اللطيف باشميل: جماعة الإخوان المسلمين (جدة: 1434هـ) ص 3

(107) انظر: فؤاد علام : الإخوان وأنا (القاهرة: أخبار اليوم، 1996م) ص 22

(108) أبو الأعلى المودودي: الحكومة الإسلامية (المختار الإسلامي 1980م) ص288

(109) برنارد لويس: الحشاشون (القاهرة: مكتبة مدبولي، ط2، 2006م) ص 22

(110) ثروت الخرباوي: سر المعبد ص 146

(111) سليم بن عيد الهلالي: الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة ص 174

(112) المرجع السابق: نفس الصفحة

(113) انظر : ثروت الخرباوي : سر المعبد ص 82

(114) انظر: سليم بن عيد الهلالي: الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة ص 176

(115) راجع : علي العشماوي: التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين (القاهرة: دار الهلال، 1993م) ص 10، 11

(116) انظر: د. عبد العظيم رمضان: الإخوان المسلمون والتنظيم السري (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م) ص 44

(117) سورة النساء آية 59

(118) سورة الشورى آية 10

(119) انظر: رجب مدكور: التكفير والهجرة وجها لوجه، تقديم علي جريشة (القاهرة: مكتبة الدين القيم، الطبعة الأولى، 1985م) ص 265، 266

(120) المرجع السابق ص 268

(121) المرجع السابق ص 277 – 278